المكتبات المدرسية في مصر والشام في العصر الأيوبي

إصلاح خطاب محمد خطاب ❖

تقديم :

إن الله سبحانه وتعالى وهب للشعوب رجالاً عظاماً قدّر لهم أن يؤدوا دوراً هاماً في تاريخها، ومن هؤلاء السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، والمتأمل للتاريخ يجد أن لكل عصر من العصور سماته التي تميزه عن غيره من العصور الأخرى، فتكسبه طابعاً فريداً خاصًا به، ولو نظرنا إلى العصر الأيوبي لوجدنا نهضة فكرية وثقافية وأدبية ودينية، والدليل على ذلك وفرة الإنتاج الفكري والمؤلفات الكبيرة التي تركوها لنا من هذا العصر، وتزخر بها مكتباتنا الإسلامية ونعتمد عليها علميًا وتمثل جزءاً من المقررات الدراسية في جامعاتنا العربية حتى الآن، هذا فضلاً عن الشخصيات البارزة في كل الميادين سواء الفكرية أو الدينية أو السياسية.

واشتهر حكام بني أيوب بحبهم للعلم والعلماء، فكان صلاح الدين – الذي وقع على كاهله عبء تأسيس الدولة وصيانتها حتى قويت واستقرت – شديد الاهتمام بعلوم الدين، فكان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفواه الأئمة المشهورين، وكان يصطحب معه أبناءه ، ومثال على ذلك أنه حرص على حضور دروس أبي طاهر بن عوف هو وأولاده وكبار رجال الدولة عندما زار الإسكندرية عام ٥٧٧هـ، حيث سمع هؤلاء جميعًا عليه موطأ مالك، وكان أيضًا يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم.

❖ ليسانس المكتبات والمعلومات من كلية الآداب – جامعة القاهرة، عام ١٩٨٥م.
- ماجستير المكتبات والمعلومات من الكلية نفسها، عام ١٩٩١م.
- دكتوراة المكتبات والمعلومات من الكلية ذاتها ، عام ٢٠٠٠م.
- تعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا بقسم دراسات المعلومات، كلية الحاسب الآلي والمعلومات، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(السبكي: ١٩٦٨م، ج٤، ٢٩). أما العزيز عثمان الذي خلف أباه صلاح الدين في السلطة فقال عنه ابن خلكان: إنه" سمع الحديث بمصر من العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم". (ابن خلكان: ١٩٧٧،ج١، ٣١٥). والأمثلة كثيرة سوف تعرض الباحثة بعضها لاحقاً.

وإذا كانت هذه هي رغبة سلاطين بني أيوب في العلم، فإننا لا نعجب لكثرة ما أسسوه من مدارس درست فيها العلوم الدينية وغير الدينية، وصارت مراكز لحياة علمية نشطة في ذلك العصر (عاشور: ١٩٧٢م، ١١٩). وغني عن القول إن الكتب ركن أساسي من أركان العملية التعليمية لا تقوم إلا به (الحلوجي:١٩٩١م، ٥١). لذا كان لهذه المدارس مكتباتها التي يرجع إليها المدرسون والطلاب، ويعتمدون عليها في التحصيل والاستزادة.

ومما يزيد من أهمية المكتبة المدرسية في تلك الآونة، أن الكتب لم تكن ميسرة، وكذلك ارتفاع أسعارها وقلة الموجود منها أدى إلى عدم استطاعة الكثيرين اقتناءها، نظرًا لأنها كانت جميعها مخطوطة، وبالتالي وجود هذه المكتبات أتاح للطلاب فرصة البحث والاطلاع ومقابلة ما يدرسون على آراء الفقهاء والعلماء، كما أتاحت لهم حرية القراءة والبحث في فروع العلوم المختلفة، ولقد ساعدت حرية البحث في المكتبات وعدم التقيد بمنهج معين على نبوغ الكثير من طلاب العلم. (عبدالعاطي: ١٩٨٤م : ٢٤٨ – ٢٤٩).

ومن هنا كانت للمكتبة المدرسية أهميتها وفائدتها للمعلم والطالب على حد سواء، لذلك روعي أن تكون المكتبة في مكان متوسط ومناسب بين أواوين[1] المدرسة، قريبة من مساكن الطلبة ليسهل الوصول إليها (عبد العاطي: ١٩٨٤م : ٢٤٩ – ٢٥٠).

أهمية الدراسة:

لقد نالت المؤسسات التعليمية سواء أكانت مدارس أم مكتبات اهتمام سلاطين بني أيوب، وعلى الرغم من أن تلك الفترة كانت تمثل ذروة الجهاد ضد الصليبيين إلا أن هذا لم يثن عزمهم عن الاهتمام بالعلم والعلماء، إيماناً منهم بأن نهوض الأمم لا تكون إلا برقيّها الثقافي وتقدمها العلمي، ولذلك أوقف سلاطين الأيوبيين الكثير من الأموال والأملاك والضياع على العلم والعلماء ممثلاً في إنشاء كثير من المؤسسات التعليمية الوقفية، ولم يقتصر دعم المؤسسات التعليمية على سلاطين وملوك البيت الأيوبي بل شارك في هذا المضمار كبار رجال الدولة من الأمراء والوزراء والعلماء والأثرياء، وأيضًا أسهمت المرأة

بدور فعال وكبير في دعم الحركة العلمية في العصر الأيوبي، وجاءت أهمية هذه الدراسة من أهمية موضوعها حيث إن المدارس التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي كانت لتبطل شعائر الشيعة في مصر، وتحل محلها شعائر السنة، فلذلك قام بتحويل المدارس الشيعية في مصر إلى مدارس سنية، ولذا نرى أن المدرسة الأيوبية كانت هي الأساس الأول الذي بدأ فيه صلاح الدين تنفيذ سياسة دولته سياسيًا ودينيًا.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم حقائق شاملة عن الصورة التي كانت عليها المكتبات المدرسية في العصر الأيوبي بمصر والشام، وذلك من خلال التعرف إلى الآتي:

١- الأسباب الرئيسة التي دعت الدولة الأيوبية إلى إنشاء المدارس.

٢- مدى اهتمام سلاطين الأيوبيين بالنواحي العلمية والثقافية.

٣- أنواع المدارس في العصر الأيوبي .

٤- فئات العاملين (الخازن – الناسخ – المجلد – المناول) بالمكتبات ووظيفة كل فئة من هذه الفئات ودورها الذي تؤديه لتدعيم هذه المكتبات وتطويرها.

٥- الكشف عن مصادر تزويد المكتبات بالكتب، وانعكاسات هذه المصادر في تنمية مجموعة المكتبة.

٦- الإعداد الفني أو الإجراءات الفنية لمجموعة المكتبة بمكتبات مدارس الدولة الأيوبية.

٧- الخدمات المكتبية التي تقدم للمستفيدين من المكتبات المدرسية الأيوبية.

أسئلة الدراسة:

تسعى الدراسة إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة، وذلك على النحو التالي:

١- ما الأسباب الرئيسية التي دعت الدولة الأيوبية إلى إنشاء المدارس؟

٢- ما مدى اهتمام سلاطين الأيوبيين بالنواحي العلمية والثقافية؟

٣- ما أنواع المدارس في العصر الأيوبي ؟

٤- ما فئات العاملين وتصنيفاتهم بمكتبات المدارس الأيوبية؟

٥- ما مصادر تزويد المكتبات بالكتب؟

٦- هل كان هناك إعداد فني أو إجراءات فنية بمكتبات مدارس الدولة الأيوبية؟

٧- ما الخدمات المكتبية التي تقدم للمستفيدين من المكتبات المدرسية الأيوبية؟

منهج الدراسة:

في ضوء أهداف هذه الدراسة ، فسوف تعتمد على المنهج التاريخي الوثائقي، الذي يقوم على جمع المعلومات والبيانات ذات الصلة بالموضوع من المصادر التي تناولت تاريخ الدولة الأيوبية، سواء كتب التاريخ أو التراجم والسير، وأيضًا كتب الرحلات والخطط، وكذلك المراجع الحديثة التي تناولت تاريخ المكتبات في الفترة الزمنية موضوع الدراسة.

ومن خلال استقراء الباحثة للإنتاج الفكري الخاص بالدولة الأيوبية، اتضح أن هذه الفترة التاريخية لم تحظ بدراسة خاصة بمكتبات المدارس بالدولة الأيوبية كدراسة مستقلة، وعلى حد علم الباحثة فهذه الدراسة تعد الأولى في تخصص المكتبات والمعلومات التي تتناول هذه الحقبة التاريخية، على الرغم من أن هناك دراسات آخرى تغطي تاريخ المكتبات في مصر في العصر المملوكي(٢).

تمهيد:

سقوط الخلافة الفاطمية في مصر وقيام الدولة الأيوبية:

لقد افتتح صلاح الدين – بعد أن آل إليه ملك مصر وأسس بها أسرة حاكمة – عهداً جديداً كل الجدة في تاريخ هذا البلد، فهذه الأسرة الأيوبية كانت بالنسبة لتاريخ هذا البلد بمثابة فترة انتقال، بل يمكن القول بأنها كانت بالنسبة لتاريخ مصر ثورة شملت جميع ميادين الحضارة، ثورة في النظم الدينية بانتصار السنة على الشيعة، وثورة في ميدان التعليم بإدخالها طراز المدرسة، وثورة في ميدان العمارة الحربية بما أدخلته على بناء القلاع والحصون من تعديلات (**كازانوفا:١٩٧٤م، ١٩**).

وسوف تستعرض الباحثة في عجالة سريعة نشأة الدولة الأيوبية والظروف التي مهدت لقيامها، والحياة الدينية، حيث كان لمظاهر هذه الحياة انعكاس كبير على النواحي الثقافية، ومنها إنشاء المدارس فضلاً عن معرفة المناخ العام الذي وجدت فيه هذه المدارس، كما تساعد على فهم روح العصر، وما كان يتطلع إليه المعاصرون.

نشأة الدولة الأيوبية والظروف التي مهدت لها:

إن الدولة الفاطمية كانت في خريف عمرها عندما ظهر الخطر الصليبي، وعجزت عن صد هذا الخطر، وفشلت في حماية نفسها منه، وترتب على الحركة الصليبية التي بدأت في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) نتائج بعيدة المدى في تاريخ الشرق والغرب على السواء، وما يهمنا هنا في هذه

العجالة التغييرات في الأوضاع السياسية والتطورات السريعة منذ وصول الصليبيين إلى الشام، فعندما انتصر الصليبيون على المسلمين في الحملة الصليبية الأولى وأسسوا إمارات في الرها[٣] وأنطاكية وطرابلس، فضلاً عن مملكة بيت المقدس كان له أثره السيئ ورد فعله العنيف في العالم الإسلامي، الأمر الذي استثار بعض الزعماء المخلصين في الشرق الإسلامي ودفعهم إلى القيام بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين، ولم تلبث أن أدت حركة الجهاد في القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) إلى بروز عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود على مسرح التاريخ، وسرعان ما اتضح أن نجاح حركة الجهاد الإسلامية لا يتحقق إلا في ظل جبهة إسلامية متحدة، توحد بين القوى الإسلامية المبعثرة بين النيل والفرات، وتجعل من هذه القوى بنيانًا مرصوصًا يستطيع الصمود في وجه الخطر الصليبي، وفكرة الجبهة الإسلامية المتحدة هي المحرك الأول الذي جعل نور الدين محمود يتجه ببصره شطر مصر بعد أن تم له الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) وأصبح يسيطر على المدن الكبرى في الشام مثل حلب ودمشق.

وفي أوائل سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢م) توج عموري الأول ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية وأدرك (عموري) أن سيطرة نور الدين محمود على حلب وحماة وحمص ودمشق قد حالت دون توسع الصليبيين في شمال الشام ، وأن الطريق الطبيعي الذي بقي مفتوحًا أمامهم هو طريق مصر.

هذا في الوقت الذي فقدت فيه الدولة الفاطمية هيبتها، واختلت أحوال مصر الداخلية، والدليل على ذلك نهاية كثير من الخلفاء بالقتل، فضلاً عن تحكم الوزراء العظام في شئون الدولة والخلافة جميعًا **(عاشور: ١٩٧٢م : ٩- ١٢)**.

وفي عام ٥٥٨هـ (١١٦٣م) تولى شاور والي الصعيد منصب الوزارة بعد أن خلع الوزير السابق أبي شجاع العادل، ولكن شاور لم يهنأ بالمنصب طويلاً، فقد نافسه ضرغام أمير برقة الذي تقدم إلى القاهرة على رأس جيش ، فأسرع شاور بالفرار إلى الشام مستنجداً بنور الدين ليعيده إلى الوزارة، وأطلعه على اضطراب أحوال مصر الداخلية، وعلم ضرغام باستنجاد خصمه بنور الدين فاستنجد بالصليبيين، وأبدى عموري ملك بيت المقدس سروره لهذه الفرصة الذهبية لغزو مصر.

بعث كل من نور الدين وعموري جيشيهما لغزو مصر، تحت ستار نجدة شاور وضرغام، وعهد نور الدين بقيادة الجيش إلى أسد الدين شيركوه وصحبه ابن أخيه صلاح الدين، وقاد عموري بنفسه الجيش الصليبي (**الخربوطلي: ١٩٦٣م، ١٧٧، ١٧٨**). وتتابعت حملات نور الدين وعموري لغزو مصر، حتى بلغ عددها ثلاثًا.

نهاية الخلافة الفاطمية في مصر:

غربت شمس الخلافة الفاطمية، وأشرقت شمس الدولة الأيوبية نتيجة التنافس بين الوزيرين الفاطميين شاور وضرغام، واستنجاد كل منهما بالطامعين في الاستيلاء على مصر (**الخربوطلي: ١٩٦٣م، ١٧٨**).

ويرى حسن أن السبب الحقيقي في سقوط الدولة الفاطمية إنما يرجع إلى الحروب الصليبية، فعلى الرغم من انحلال قوة الفاطميين في الشطر الثاني من حكمهم، فإن الحروب الصليبية قد عجلت بزوال دولتهم التي سيطرت ردحًا من الزمن على جميع الولايات الغربية للدولة العباسية الشاسعة الأرجاء (**حسن : ١٩٥٨م، ١٨٠**).

وكما سبق ذكره تتابعت حملات نور الدين وعموري لغزو مصر حتى بلغ عددها ثلاثًا، وبعد سلسلة طويلة من الحروب نجح شيركوه في الانتصار على الصليبيين في عدة مواقع في القاهرة والإسكندرية واتفق شيركوه مع عموري على أن يجلوا جيشيهما عن مصر، واستفاد شاور من هذا الاتفاق، فقد أصبح صاحب السيادة الوحيد في مصر، في وقت لحق الضعف بجيشي نور الدين والصليبيين نتيجة القتال العنيف.

وفي العام التالي تحديدا في صفر ٥٦٤ هـ (نوفمبر ١١٦٨م) نقض الصليبيون عهدهم لشيركوه، وحاول شاور بكل وسيلة صدهم حتى أنه أشعل النيران في مدينة الفسطاط ليمنعهم من الاستيلاء عليها، واستمرت النيران تضطرم في الفسطاط خمسين يومًا حتى أصبحت هذه المدينة التاريخية أثرًا بعد عين، وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستنجد به ليساعده ضد الصليبيين، ووعده بأن يمنحه ثلث أرض مصر، وأن يسمح بوجود حامية لنور الدين في مصر (**ابن واصل:١٩٥٣م، ج١، ١٥٨**).

وأبدى شاور غضبه لما فعله الخليفة، فقد كان يرى أن المال قد يحل المشكلة دون السماح لنور الدين بالعودة للتدخل في شئون مصر، فاتفق مع الصليبيين على أن يؤدي لهم مليون دينار مقابل جلائهم عن مصر، وأعطاهم مائة ألف دينار سلفًا.

استجاب نور الدين لاستنجاد الخليفة به، فبعث حملة أخرى قادها شيركوه أيضًا، وصحبه صلاح الدين وذلك سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) وأدرك عموري خطورة الموقف **(الخريوطلي: ١٧٩,١٩٦٩- ١٨٠)**، ولذلك قرر الانسحاب من الأراضي المصرية بدون قتال، فكانت فرحة لا تخطر على بال.

ورأى الخليفة الفاطمي العاضد مكافأة أسد الدين شيركوه، فأسند إليه الوزارة ولكن المنية لم تمهله كثيراً، فقد مات بعد شهرين وخمسة أيام في مارس ١١٦٩م، ثم أسند العاضد الوزارة بعد ذلك إلى صلاح الدين ولقبه بالملك الناصر وهو اللقب الذي حمله شيركوه نفسه من قبل **(الدومي: (د.ت)، ٣٤)**. وظن العاضد أنه باختيار هذا الشاب وعدم خبرته يستطيع أن يمارس سلطته كخليفة دون استبداد الوزير **(الخريوطلي: ١٩٦٣م، ١٨١)**.

لكن صلاح الدين لم يكد يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة الفاطمي، فشرع في استمالة الناس إليه، فبذل الأموال، وأحسن لجميع الجند الشاميين والمصريين فأحبوه وأطاعوه وأقام نائبًا عن نور الدين في مصر. **(الأتابكي: د.ت، ج٥، ٣٤٩)**. وكثيرًا ما أوصى صلاح الدين بالأساقفة والقسس خيرًا وكثيرًا ما سهل لهم أن يقيموا شعائر دينهم كما يريدون **(بيومي: ١٩٥٢، ١٦١)**.، فمال الناس إليه وأحبوه، وضعف أمر العاضد، ثم إن صلاح الدين أخضع مماليك شيركوه وسيطر سيطرة تامة على الجند، في الوقت الذي أمده نور الدين بقوة جديدة من العسكر فيها شمس الدين توران شاه أخو صلاح الدين، وبفضل ذلك كله تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه العاضد الفاطمي **(ابن واصل: ١٩٥٣م، ج١، ١٧٤)**.

ومنذ أن ثبت نور الدين أقدام رجاله في مصر أخذ يلح على صلاح الدين بقطع خطبة العاضد **(بيومي: ١٩٥٢م، ١٧٣)**. وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر، فلم يصغ نور الدين لقوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزامًا لا فسحة له فيه.

ومرض العاضد وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له، ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة هجرية فاستفتحها صلاح الدين بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها لبني العباس، وفي الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للخليفة العباسي، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وتوفي

يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة (**أبو شامة: ١٩٩٧م، ١٨٩ – ١٩١**). وبذلك انتهت الدولة الفاطمية التي دامت مائتين واثنتين وسبعين سنة وشهرًا تقريبًا (**ابن الأثير: ١٩٧٩م، ٣٦٩ – ٣٧١**).

ثم توفي نور الدين عام ٥٦٩هـ (١١٧٤م)، والذي كان لوفاته أكبر الأثر في المحاولات التي بدأت تظهر في الشام للسيطرة على ابن نور الدين الوحيد الذي يدعى الصالح إسماعيل والذي لم يبلغ الحادية عشرة من العمر؛ لذلك رأى صلاح الدين ضرورة النظر في هذا الأمر لأن الصالح صبي لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك (**ابن واصل: ١٩٥٧م، ج٢، ٩ – ١٨**).

لذلك تدخل صلاح الدين في الصراع الدائر في الشام وقضى فترة طويلة في الصراع مع الحلبيين ومع أبناء البيت الزنكي الذين تحالفوا ضده مع الصليبيين، حتى اضطر أن يقطع الخطبة للصالح إسماعيل وأزال اسمه من النقود وتلقب بلقب ملك مصر والشام، وقد أقر الخليفة العباسي في بغداد هذا الوضع.

وكان هدف صلاح الدين من ذلك تنفيذ سياسته في إعادة الجبهة الإسلامية المتحدة إلى سابق عهدها، بحيث تمتد من شمال العراق إلى الشام فمصر ليتمكن بعد ذلك من تعزيز حركة الجهاد ضد الصليبيين، والمسلمون أشد ما يكونون قوة وتماسكًا (**ابن شداد: ١٩٦٢م، ٩٢ – ٩٤**). هذا بالنسبة لقيام الدولة الأيوبية. وفيما يلي بيان بالحياة الدينية في ذلك العصر حيث كانت سببًا في قيام المدارس.

نحن نعلم أن الفاطميين كانوا شيعة، وأن بني أيوب كانوا سنّة (**حمزة: ١٩٦٨م، ٧٠**). وكان أهم ما اتصفت به الحياة الدينية في العصر الأيوبي هو القضاء على آثار المذهب الشيعي وتدعيم المذهب السني في أنحاء البلاد (**عاشور: ١٩٧٢م، ١١٦**)، وكما كانت المكتبات والمجامع العلمية ودار الحكمة وغيرها جزءاً هاماً من الخطة التي اتبعها الفاطميون لنشر الدعوة الفاطمية، فكذلك أصبحت المدارس الأيوبية جزءاً هاماً من الاستراتيجية التي وضعها صلاح الدين للعودة بهذه البيئة من المذهب الشيعي إلى المذهب السني (**حمزة: ١٩٦٨م، ٨٠**).

وثمة ظاهرة دينية أخذت تزداد وضوحًا في العصر الأيوبي، وهي ظاهرة التصوف والإكثار من بناء منازل للصوفية عرفت باسم الخانقاه (**عاشور: ١٩٧٢م، ١١٧**)، وهي معابد كبيرة يقضي فيها الصوفيون حياتهم، وهؤلاء الصوفية كانوا يتصفون بالعلم والصلاح (**حمزة: ١٩٦٨م، ١٠٦ – ١٠٧**).

أولاً: الأسباب التي دعت الدولة الأيوبية إلى إنشاء المدارس:

كان صلاح الدين متعصبًا للمذهب السني، فرأى في قيام المدارس تطبيقًا للدين الإسلامي السليم، واعتبر ذلك تقربًا إلى الله تعالى، بعد أن سيطر المذهب الشيعي على البلاد المصرية أكثر من قرنين من الزمان فكان لابد أن يقابل ذلك سلاح العلم.

وحينما أنشأ صلاح الدين المدارس قصد بها يومئذ أن تقوم بعملين مهمين :

١- تعليم الناس المذهب السني ومحاربة العقائد الفاطمية.

٢- إثارة الحماس الديني ضد الفرنج في الحروب الصليبية (حمزة: ١٩٦٨م، ٨٢).

ثانيًا: اهتمام سلاطين الأيوبيين بالنواحي العلمية والثقافية وإنشاؤهم للمدارس:

يذكر التاريخ أن صلاح الدين وجميع سلاطين البيت الأيوبي أحبوا العلم والعلماء، وكما سبق ذكره فإن صلاح الدين كان يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ويستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم كما كان يشارك بنفسه في تشييع جنائزهم (السبكي: ١٩٦٨م، ج٤، ٣٢٩)، وهذا يدل على تقدير السلطان للعلماء في حياتهم ومماتهم، وكان أيضًا صلاح الدين يلبي رغبات هؤلاء العلماء عندما يشيرون عليه بما فيه تحقيق للمصلحة العامة، ومثال لذلك عندما أشار ابن عوف بإعادة ضريبة الصادر، وهي ضريبة كانت تفرض على تجار الفرنج على البضائع الصادرة من الإسكندرية وكانت تحدد بما يقرب من ١٠٪ من قيمة البضائع، وكان الديوان (أي جمرك الإسكندرية) هو الهيئة الوحيدة التي تقوم بتحصيل هذه الضرائب (الشيال : ١٩٦٧م، ٢١) . ومما يؤكد حب السلطان صلاح الدين للعلم والعلماء ما قاله معاصروه فيه إنه كان " يؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد وكان لمداومته الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم في الأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية " (أبوشامة :١٩٦٢م، ج٢، ٢١٧) . ويدل هذا النص على أن صلاح الدين كان متبحرًا في العلوم الشرعية، محبًا للعلم، مقدرًا للعلماء، ولهذا رصد الكثير من الأموال والأوقاف على المؤسسات العلمية.

ويصف كمال الدين ابن العديم مدى اهتمام الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين قائلاً : "وكان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب كثير الإكرام لي ، ما حضرت

مجلسه قط فأقبل على أحد إقباله عليّ مع صغر السن " **(الحموي : ١٩٣٨م، ج٦، ٤٥)**.

ومثل ذلك يقال على بقية سلاطين بني أيوب، وخاصة السلطان الكامل الذي كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وكان شغوفاً بسماع الحديث النبوي...، وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحوه يمتحن بها، فمن أجاب عنها قدمه وحظي عنده، وكان يبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم... فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه..." **(عاشور:١٩٧٢م، ١١٨)**.

كما أنه لم يبخل على أهل العلم ، حيث وفد إليه جماعة منهم فأكرمهم وأحسن إليهم، وكان من بين هؤلاء مدرسون درسوا في المدارس الأيوبية مثل تاج الدين الآرموي المدرس بالمدرسة الناصرية الصالحية ، وأفضل الدين الخونجي أحد مدرسي المدرسة الصالحية بمصر، ولم يتردد السلطان الكامل في الاستفادة من الشيخ أبي الخطاب عمر بن دحية شيخ دار الحديث الكاملية بمصر **(ابن واصل :١٩٧٥م، ج٥، ١٦٣)**.

كما أن الملك الناصر داود بن المعظم عيسى أعطى الشيخ سيف الدين الآمدي ثمانية آلاف درهم ، وكان الملك الناصر يحرص على حضور مجلس والده إذا حضره الشيخ سيف الدين الآمدي، حيث قال : " كان إذا حضر الشيخ سيف الدين عند والدي – رحمه الله – أقصد الحضور لأسمع كلامه وأتعجب من بلاغته وفصاحته وحسن احتجاجه واستعلائه على الجماعة في المناظرة " **(ابن واصل :١٩٧٥م، ج٥، ٣٨)**.

لذلك لا عجب إذا اشتهر من بني أيوب أنفسهم أعلام في مختلف دروب المعرفة، منهم المؤرخ الشهير أبو الفداء[٤]، صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر، ومنهم بهرام شاه بن فرخشاه، صاحب بعلبك، المتوفى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م)، وكان شاعراً وأديباً، والملك الناصر ابن الملك المعظم عيسى، المتوفى سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وكان مشتغلاً بتحصيل الكتب النفيسة، والملك المؤيد الأيوبي صاحب اليمن، المتوفى سنة ٧٢١هـ (١٣٢١م) وكان من أهل العلم واشتملت خزائنه على مائة ألف مجلد، والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، المتوفى سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م)، "وكان راغبًا في الأدب وأهله حتى شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة..."وكذلك كان يحضر سيف الدين الآمدي ليالي الجمع مع علماء دمشق عنده ويسمع بحثه ومجادلته وكان الآمدي بليغًا إلى الغاية **(ابن واصل :١٩٧٥م، ج٥، ٣٩)** .

وكنتيجة لحب البيت الأيوبي للعلم والعلماء فقد قاموا بتأسيس الكثير من المدارس والتي كان لها انعكاسات عدة على الحياة العلمية والثقافية .

لمحة تاريخية عن نشأة المدارس في مصر والشام :

أولاً : مصر:

مدينة الإسكندرية هي أول مدينة مصرية تشهد بناء المدارس، حيث أنشأ بها الوزير رضوان بن ولخشى أول مدرسة في الإسكندرية **(القلقشندي: ١٩٨٧م، ج١٠، ٤٥٨)** وجعله لتدريس المذهب المالكي **(السيد:١٩٩١م، ١١٦- ١١٧)**، وكان ذلك عام٥٣٢هـ (١١٣٨م) أي قبل سقوط الدولة الفاطمية.

كما أنشأ الوزير العادل بن السلار مدرسة أخرى في الإسكندرية، عام ٥٤٤هـ (١١٥٠م)، وهي مدرسة للمذهب الشافعي وتسمى السلفية نسبة إلى مدرسها أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي **(سالم: ١٩٨٢م، ٢١٩)**.

إذن عرفت مصر المدارس قبل عصر صلاح الدين، ولكن صلاح الدين هو الذي أدخل نظام المدرسة إلى القاهرة (الفسطاط)، وليس إلى مصر.

ثانيًا: الشام:

أنشئت أول مدرسة في دمشق وهي المدرسة الصادرية، أنشأها شجاع الدولة صادر بن عبدالله لتدريس المذهب الحنفي **(النعيمي:١٩٩٠م، ج١، ٤١٣)** وذلك عام ٣٩١هـ (١٠٠٠م).

ثم أنشئت بعد ذلك دار القرآن الرشائية في حدود الأربعمائة ونيف أنشأها مقرئ الشام رشأ ابن نظيف الحموي **(النعيمي: ١٩٩٠م، ١١)** .

ثم أنشئت أول مدرسة في حلب في عام ٥١٧هـ (١١٢٣م)، وهذه المدرسة شافعية المذهب **(العجمي: ١٤١٧م،ج١، ٢٧٠)**، وهناك اختلاف فيمن أنشأ هذه المدرسة، قيل إن هذه المدرسة من إنشاء بدر الدولة أبي الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرنق صاحب حلب **(ابن شداد: ١٩٩١م، ج١، ٢٤١)**، بينما تذكر بعض المصادر التاريخية أنها من إنشاء شرف الدين عبد الرحمن العجمي، وكان مدرسها ومتولي النظر بها، ويرجح الحلبي أن كلاً من سليمان وابن العجمي اشتركا في البناء؛ لذا ينسب إنشاؤها لكل منهما، وتسمى هذه المدرسة بالمدرسة الزجاجية نسبة إلى السوق الذي تقع فيه **(الحلبي: ١٩٢٥م، ج٤، ٢٥٠)**.

إذن فنشأة المدارس في بلاد الشام كانت بجهود فردية إلى أن تولى الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي عام ٥٤١هـ (١١٤٦م)، حيث قام ببناء المدارس في بلاد الشام مثل دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك،

ومنبج، والرصبة، واقتدى نور الدين في بناء المدارس بالوزير السلجوقي نظام الملك صاحب المدارس النظامية (ابن خلكان: ١٩٦٨م، ج٥، ١٨٥) الذي كان يرعى العلم ويعمل على نشره.

أنواع المدارس في العصر الأيوبي:

شارك في إنشاء المدارس في العصر الأيوبي جميع فئات المجتمع الذين يؤمنون بأهمية هذا العمل وقيمته، حيث شارك فيه كل من يتمتع بالقدرة المادية والفكرية، لذا نرى تفاوت المنشئين لهذه المدارس ما بين سلاطين أو أمراء أو وزراء أو من عامة الشعب، وشاركت المرأة أيضًا مشاركة إيجابية في هذا المجال، وكان لاشتراك جميع فئات المجتمع في بناء المدارس أثره الواضح في اتساع الحركة المدرسية في العصر الأيوبي، وتعددت أنواع المدارس الأيوبية طبقاً للتخصصات كما يلي:

١- مدارس الفقه الإسلامي.

٢- دور الحديث.

٣- المدارس النحوية.

٤- المدارس الطبية.

وهذه المدارس لا تقتصر على تدريس التخصص الذي أنشئت من أجله، أي أن المدرسة الفقهية يدرس فيها الحديث والقراءات والنحو بجانب الفقه، وربما كان هذا التحديد هو جعل هذا التخصص الذي أنشئت المدرسة من أجله مادة أساسية فيها لا يمكن إلغاؤها.

أولاً: مدارس الفقه الإسلامي:

المدارس الفقهية هي الأوسع انتشارًا في مصر والشام على حد سواء، ويصعب مقارنتها بالمدارس الأخرى، وهذه المدارس شملت المدارس الأحادية أي يدرس فيها مذهبٌ واحدٌ من المذاهب الفقهية الأربعة.

وهناك أيضًا المدارس الثنائية وهي التي يدرس بها مذهبان فقهيان، أما المدارس الرباعية فهي تلك المدارس التي تدرس بها المذاهب الفقهية الأربعة (معروف: ١٩٧٦م، ٢٩). ولا يوجد مدارس ثلاثية المذهب، وعلى الرغم من تعدد أنواع المدارس الفقهية كانت المدارس الأحادية هي الأكثر انتشارًا.

أ- المدارس الأحادية:

أولاً: المدارس الأحادية بمصر:

١- المدرسة الناصرية:

عمل صلاح الدين منذ أن استوزر للعاضد على الاهتمام بالعلم والتعليم، وكان لديه رغبة أكيدة في ضرورة إعادة مصر من المذهب الشيعي إلى المذهب السني، فبدأ ببناء المدارس حيث كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه، فهدمها صلاح

الدين وبناها مدرسة للشافعية، وأزال ما كان فيها من ظلم **(ابن الأثير: ١٩٧٩م، ج٩، ١١٠)** وكان ذلك أول محرم ٥٦٦هـ (١٤سبتمبر١١٧٠م)، وكانت هذه المدرسة تعرف في الماضي بخطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، ثم عرفت بعد ذلك بدار الفلفل، وكان السبب في تسميتها أن صاحب خراج مصر أسامة بن زيد التنوخي ابتاع فلفلاً كان كتب فيه الوليد بن عبد الملك، ليهديه إلى صاحب الروم فخزنه فيها، وعرفت هذه المدرسة بالمدرسة الناصرية نسبة إلى مؤسسها الناصر صلاح الدين، ثم عرفت بمدرسة ابن زين التجار، وهو أبو العباس أحمد ابن المظفر الحسين الدمشقي المعروف بابن زين التجار، وهو أحد أعيان الشافعية عمل مدرسًا في هذه المدرسة لمدة طويلة وتوفي عام ٥٩١هـ (١١٩٤م)، ثم تغير اسم المدرسة فعرفت بالمدرسة الشريفية نسبة إلى أحد مدرسيها وهو الشريف القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد الحنفي قاضي العسكر **(ابن واصل: ١٩٥٣م، ج١، ١٨٩)**. وتقع هذه المدرسة بجوار الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص).

٢- المدرسة القمحية:

بدأ صلاح الدين في إقامة هذه المدرسة في النصف من المحرم سنة ٥٦٦هـ (بداية أكتوبر ١١٧٠م) قبيل وفاة العاضد، وتقع هذه المدرسة بجوار الجامع العتيق، وتعتبر من أهم المراكز العلمية لتدريس المذهب المالكي، وكان موضع هذه المدرسة يعرف بدار الغزل، لأنه كان قيسارية[٥] يباع فيها الغزل.

ويصف المقريزي هذه المدرسة بأنها أجل مدرسة للمالكية، حيث رتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدد من الطلبة **(المقريزي: ١٢٧٠هـ ،ج٣، ٣١٦)**.

وعرفت هذه المدرسة بالقمحية لأن صلاح الدين أوقف لها ضيعة بالفيوم تعرف بالجنوشية، وكان يتحصل منها قمح يوزع على المدرسين والمعيدين والطلبة الذين يدرسون ويَدرّسون بالمدرسة.

وتعتبر المدرسة القمحية من أشهر المدارس السنية في العصر الأيوبي وأدت دورًا كبيرًا في تدريس المذهب المالكي الذي كان من المذاهب الشائعة في مصر وشمال أفريقيا **(صبره:١٩٩١م، ١٥٣)**.

٣- المدرسة الصلاحية:

أقامها صلاح الدين الأيوبي بعد سقوط الخلافة الفاطمية سنة ٥٧٣هـ (١١٧٦م) وتقع بجوار الإمام الشافعي، ويصفها السيوطي بقوله: ينبغي أن يقال لها تاج المدارس، وهي أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق؛ لشرفها بجوار

الإمام الشافعي، ولأن بانيها من أعظم الملوك، ليس في ملوك الإسلام مثله، لا قبله، ولا بعده (السيوطي:١٩٧٨،ج٢، ٢٢٤ - ٢٢٥). ويؤكد ذلك الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي زار مصر في تلك الفترة حيث يقول عن تلك المدرسة: "لم يعمر بهذه البلاد مثلها لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، ويخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقلة بذاتها" (ابن جبير: ١٩٨٦م، ٢٢) ويوضح هذا مدى عظمة تلك المدرسة سواء في الاتساع أو البناء.

وتعتبر هذه المدرسة من أهم المدارس التي درسّت الفقه الشافعي وتولى التدريس فيها الشيخ نجم الدين الجنوشاني.

٤- المدرسة السيوفية:

تعتبر هذه المدرسة أولى المدارس التي أوقفت لتدريس المذهب الحنفي، فقد وقفها السلطان صلاح الدين على الحنفية سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) مقررًا في تدريسها الشيخ مجد الدين الحنفي، وقد كانت هذه المدرسة من جملة دار الوزير المأمون البطائحي في العصر الفاطمي، وعرفت بالسيوفية؛ لأن سوق السيوف كان حينئذ على بابها، وهي تقع برأس السكة الجديدة عند التقاطع مع الشارع الموصل من باب زويلة إلى سوق النحاسين (المقريزي:١٢٧٠هـ ،ج٣، ٣١٩).

٥- المدرسة العادلية:

أقامها السلطان العادل أبو بكر أخو صلاح الدين، لتدريس الفقه المالكي، وقد عين عليها أحد أئمة الفقه الإسلامي وهو قاضي القضاة تقي الدين أبو علي الحسين حفيد نجم بن شاس وهو من الشخصيات الهامة (المقريزي:١٢٧٠هـ ،ج٣، ٣١٨) وتقع هذه المدرسة بخط الساحل بجوار الربع العادلي من مدينة الفسطاط.

هذه هي المدارس التي شيدها سلاطين البيت الأيوبي وكان يدرس فيها مذهبٌ واحدٌ.

٦- المدرسة التقوية:

كانت من الدور التي شيدت في العصر الفاطمي، شيدتها أم الخليفة العزيز بالله وعرفت بمنازل العز، وهي تقع على شاطئ النيل في الفسطاط ، وصارت معدة لنزهة الخلفاء، فلما زالت الدولة الفاطمية، أنزل السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر هذه الدار فسكنها مدة، ثم اشتراها من بيت المال، وعندما أراد تقي الدين أن يخرج من مصر إلى الشام "وقف منازل العزيز هذه وحولها مدرسة للفقه الشافعي" (ابن دقماق:١٨٩٠م ،ج٤، ٩٣).

أوقف تقي الدين عمر مجموعة من الأوقاف للإنفاق على هذه المدرسة ومنها الحمام المجاور

لها، وعمر الإصطبل فندقًا عرف بفندق النخلة ووقفه عليها، وكذلك أوقف الجزيرة التي اشتراها وعرفت بالروضة، وقد أطلق على هذه المدرسة اسم المدرسة التقوية نسبة إلى منشئها. **(ابن دقماق: ١٨٩٠م،ج٤ ،٩٣-٩٤).**

٧- المدرسة الأزكشية:

بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدي مملوك أسد الدين شيركوه، وأحد أمراء صلاح الدين الأيوبي، وجعلها وقفًا على الفقهاء الحنفية سنة ٥٩٢هـ (١١٩٥- ١١٩٦م)، وبذلك تعتبر المدرسة الثانية التي يدرس فيها الفقه الحنفي في مصر.

٨- المدرسة السيفية:

قام بتأسيس هذه المدرسة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين، كانت في بداية الأمر داراً سكنها شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية، وتم تحويلها إلى مدرسة في عام ٥٩٣هـ (١١٩٧م)، وعين على التدريس بها عماد الدين بن شيخ الشيوخ، ولم تحدد المصادر التاريخية مذهب هذه المدرسة.

٩- المدرسة الشريفية:

شيد هذه المدرسة أمير الحاج والزائرون وأحد أمراء مصر، وهو الأمير فخر الدين أبو نصر اسماعيل الجعفري الزيني، وكانت في بداية الأمر سكنًا للفقهية، وقف عليها الأمير فخر الدين كل أملاكه، وكانت تقع بدرب كركامة على رأس حارة الجوذرية، بالقرب من سوق الفحامين، وكان ذلك في عام ٦١٢هـ (١٢١٥- ١٢١٦م)، وهي مدرسة شافعية المذهب.

١٠- المدرسة الفخرية:

أنشأها الأمير فخر الدين أبو الفتح عثمان استادار الملك الكامل محمد بن العادل، عام ٦٦٢هـ (١٢٢٥م)، وتقع هذه المدرسة بين سويقة الصاحب ودرب العباس داخل حارة الوزيرية ، ولم تحدد المصادر المذهب الذي قامت بتدريسه هذه المدرسة.

١١- المدرسة الصيرمية:

شيد هذه المدرسة الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم، أحد أمراء الملك الكامل محمد بن أبي بكر الأيوبي، وتقع داخل باب الجملون الصغير بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش فيما بينها وبين الجامع الحاكمي **(المقريزي: ١٢٧٠هـ، ج٣، ٣٢٢-٣٤٠)** وهي غير محددة المذهب.

١٢- المدرسة القطبية:

أنشأ هذه المدرسة الأمير قطب الدين خسرو ابن بلبل بن شجاع، أحد الأمراء العظام على عصر صلاح الدين وذلك في عام ٥٧٠هـ (١١٧٤- ١١٧٥م)، وجعلها مركزًا من مراكز

الفقه الشافعي، وكانت تقع بخط سويقة الصاحب بداخل درب الحريري (المقريزي:١٢٧٠هـ، ج٣، ٣١٨).

١٣- المدرسة الفائزية:

بناها الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهب، قبيل وزارته سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م)، وهي مدرسة للفقه الشافعي (**المقريزي: ١٢٧٠هـ ،ج٣، ٣١٨**).

١٤- المدرسة الصاحبية:

شيدها الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر وزير الملك العادل الأيوبي، وذلك ما بين عامين ٥٩٠- ٦٠٠هـ (١١٩٣- ١٢٠٤م)، وهي موقوفة على المذهب المالكي، وتقع في سويقة الصاحب، وكان موقعها جزءاً من دار الوزير يعقوب بن كلس، والتي عرفت فيما بعد باسم دار الديباج (**المقريزي: ١٢٧هـ ،ج٣، ٣٣٤**).

١٥- المدرسة العاشورية:

أقامت هذه المدرسة الست عاشوراء بنت ساروح الأسدي، زوجة الأمير أيازكوج الأسدي، والست عاشوراء من محدِّثات القرنين الخامس والسادس الهجريين، وكانت هذه المدرسة أساسًا دارًا للطبيب اليهودي ابن جميع كاتب بهاء الدين قراقوش على عهد صلاح الدين، فقامت الست عاشوراء بشرائها وأوقفتها على دراسة الفقه الحنفي (**معروف: ١٩٦٦م، ٢٨**)، وتسمى هذه المدرسة أيضًا بمدرسة حارة زويلة، حيث كانت تقع بحارة زويلة، وكانت هذه المدرسة من الدور الحسنة. (**ابن عبد الظاهر: ١٩٩٦م، ٨٩**).

١٦- مدرسة ابن الأرسوفي:

تعتبر هذه المدرسة أول مدرسة أنشئت في مصر لأفراد غير تابعين للدولة بناها التاجر العسقلاني عفيف الدين محمد الأرسوفي سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤- ١١٧٥م)، وهي تقع في منطقة البزازين التي تجاور خط النخالين، وكان طلابها يدرسون المذهب الشافعي (**المقريزي : ١٢٧٠هـ، ج٣، ٣١٨**).

١٧- المدرسة المسرورية:

وهذه المدرسة من النماذج الطيبة، إذ قام بإنشائها أحد خدام القصر، وهذا يؤكد أن الحركة العلمية والمدرسة بمصر لم تكن حكرًا على السلاطين وحسب، وإنما كان لخدامهم دور في هذا المجال.

وهذه المدرسة كانت دارًا لأحد خدام القصر يدعى شمس الخواص مسرور، وكتب وصيته قبيل وفاته على أن تحول داره إلى مدرسة وأوقف عليها أحد الفنادق الصغرى للإنفاق عليها، وكان بناؤها من ثمن ضيعة بالشام كانت بيده بيعت بعد موته. (**المقريزي: ١٢٧٠هـ، ج٣، ٣٤١**). وتقع هذه المدرسة داخل درب شمس الدولة، المعروف باسم حارة الأمراء والذي يقع جنوب القصر الغربي، وهذه المدرسة غير محددة المذهب.

١٨- المدرسة الغزنوية:

أنشأها أحد المماليك التابعين لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وهو حسام الدين قايماز النجمي، وأوقفها لتدريس المذهب الحنفي وعين لها الشيخ شهاب الدين الغزنوي فعرفت به، وتقع هذه المدرسة عند رأس سويقة أمير الجيوش. **(المقريزي: ١٢٧٠هـ، ج٣، ٣٦١).**

١٩- مدرسة ابن رشيق:

قام شعب الكانم من بلاد التكرور الأفارقة بدفع مبلغ من المال للقاضي علم الدين ابن رشيق عند وصولهم إلى مصر متجهين إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، وذلك من أجل إقامة مدرسة لتدريس الفقه المالكي بمصر فقام ابن رشيق ببنائها، ودرس بها فعرفت به واستمر هؤلاء وداوموا على إرسال المال اللازم لهذه المدرسة حتى صارت لها سمعة كبيرة في بلاد التكرور على أنها تحمل اسمهم داخل مصر **(المقريزي: ١٢٧٠هـ، ٣١٨).** وتقع هذه المدرسة بخط حمام الريش في الفسطاط.

ثانيًا: المدارس الأحادية بالشام:

(أ) دمشق:

١- المدرسة التقوية:

أنشأها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب مدرسة منازل العز بمصر، وذلك عام ٥٧٤هـ (١١٧٨م) **(ابن شداد: ١٩٥٦م، ٢٣٥٢).**

وتقع هذه المدرسة شمال الجامع الأموي شرقي الظاهر والاقباليتين داخل باب الفراديس **(النعيمي:١٩٩٠م، ج١، ١٦٢- ١٦٣)**، وهذا المكان يعرف الآن بباب العمارة **(علي:١٩٢٨م، ج٦، ٧٨)**، واحتلت هذه المدرسة مكانة مرموقة حيث كانت تسمى " نظامية الشام "؛ نظرًا لفضلاء العصر الذين كانوا يرتادونها ويقومون بالتدريس فيها على المذهب الشافعي، وتعد من أجلّ مدارس الشام. **(النعيمي:١٩٩٠م، ج١، ٦٣).**

٢- المدرسة الشامية البرانية:

لم يقتصر إنشاء المدارس ودعم الحركة العلمية في العصر الأيوبي على الرجال بجميع طبقاتهم بدءًا من السلاطين مرورًا بالملوك والأمراء والتجار والأثرياء فحسب، بل ساهمت المرأة أيضًا بدور مؤثر وكبير في دعم العملية التعليمية فهذه المدرسة أنشأتها الخاتون[٦] ست الشام بنت نجم الدين أيوب وأخت صلاح الدين الأيوبي، وتقع هذه المدرسة في ظاهر دمشق بالعونية **(أبو شامة: د. ت، ج٢، ١٩٥).**

ويقول النعيمي: إن مكانها مشهور بالعقيبة الكبرى **(النعيمي:١٩٩٠م، ج١، ٢٠٨)** بينها وبين سوق صاروجا [ساروجا] وكان محلها يسمى

بالعيينة (بدران:١٩٦٠م، ١٠٤). كما كان يطلق على هذه المدرسة أيضًا المدرسة الحسامية نسبة إلى حسام الدين عمر بن لاجين وهو ابن الخاتون ست الشام والذي دفن فيها (بدران:١٩٦٠م، ١٠٤)، (علي:١٩٢٨م، ج٦، ٨١). ولقد وقفت هذه المدرسة على المذهب الشافعي. (ابن شداد:١٩٥٦م، ج٢، ٢٤٩).

٣- المدرسة الشامية الجوانية:

قامت بإنشائها أيضًا الخاتون ست الشام، وتقع قبلي البيمارستان النوري، ويذكر أن هذه المدرسة كانت دارا لها، ولكنها حولتها إلى مدرسة وأوقفتها على المذهب الشافعي (النعيمي:١٩٩٠م، ج١، ٣٠١).

٤- المدرسة العادلية الكبرى:

شرع في بناء هذه المدرسة نور الدين محمود إلا أنه توفي قبل أن تكتمل، وأكمل بناءها بعده الملك العادل الأيوبي، قال أبو شامة: " ... شرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية ... وأدركه الأجل دون إدراك عملها "(أبو شامة:١٩٦٢م، ج١، ٢١٤).

بينما يذكر ابن شداد أن " أول من أنشأها نور الدين محمود بن زنكي، وتوفي ولم تتم، فاستمرت كذلك، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين، ثم توفي ولم تتم أيضًا، فتممها ولده المعظم عيسى[٧] ووقف عليها الأوقاف " (ابن شداد: ١٩٥٦م، ج٢، ٢٤٠).

مما سبق يتضح أن الذي بدأ بإنشاء هذه المدرسة هو السلطان نور الدين محمود كما ذكر أبو شامة في حوادث عام ٥٦٨هـ (١١٧٢م)، ثم توفي قبل إتمام البناء، ثم جاء الملك العادل الذي شرع في بناء المدرسة من جديد عام ٦١٢هـ (١٢١٥م)، ثم استكمل بناءها الملك المعظم.

وهذه المدرسة كانت تتمتع بشهرة كبيرة، إذ وصفها ابن بطوطة في رحلته قائلاً : "وللشافعية في دمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية، وبها يحكم قاضي القضاة" (ابن بطوطة: د. ت، ٩٦).

وهذه المدرسة درس فيها وسكنها جلة من العلماء، ففيها وضع المقدسي كتابه: الروضتين في أخبار الدولتين، حيث أشار إلى ذلك بقوله: "... وفيها قدّر الله تعالى جمع هذا الكتاب ..."، وفيها وضع ابن خلكان كتابه المشهور: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، وكان يقف على باب المدرسة العادلية ابن مالك النحوي ويدعو الناس لحضور درسه مناديًا: "هل من متعلم، هل من مستفيد" (علي: ١٩٢٨م، ج١، ٨٥).

٥- المدرسة المعظمية:

أنشأها الملك المعظم عيسى، الذي كان متبعًا للمذهب الحنفي لذلك أوقفها عليه. وذلك عام ٦٢١هـ (١٢٢٤م) وتقع هذه المدرسة بسفح

جبل قاسيون الغربي جوار المدرسة العزيزية. (ابن شداد: ١٩٥٦م، ج٢، ٢٢٠).

٦- المدرسة الصاحبية:

أنشأتها ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب وأخت السلطان صلاح الدين ووقفتها على المذهب الحنبلي (ابن شداد: ١٩٥٦م، ج٢، ٢٥٧)، وهي تقع بسفح جبل قاسيون من الشرق، وهذه المدرسة معروفة ومشهورة الآن في حارة الأكراد، كما أن بناء هذه المدرسة عظيم يدل على الأبهة والجلال، وهي من الآثار التي تدل على رقي الفن المعماري في ذلك الزمان (بدران:١٩٦٠م، ٢٣٧).

٧- المدرسة العزيزية:

أقامها الملك العزيز عثمان بن الملك العادل شقيق الملك المعظم عيسى، عام ٦٣٥هـ (١٢٣٧م)، ووقفها على المذهب الحنفي. (ابن شداد: ١٩٥٦م، ج٢، ٢٢٠- ٢٢١)، وتقع هذه المدرسة بالصالحية بجوار المدرسة المعظمية.

٨- المدرسة الشبلية :

باني هذه المدرسة كافور بن عبد الله الحسامي شبل الدولة ،وذلك عام ٦٢٣هـ (١٢٢٦م)؛ ليدرس فيها المذهب الحنفي، وأوقف عليها الأوقاف ونقل إليها الكتب الكثيرة ، وهي تقع في جبل قاسيون (سبط بن الجوزي : ١٩٥١م، ٨، ٦٤٢) .

٩- المدرسة البادرائية :

تنسب للشيخ عبد الله بن أبي الوفاء محمد ابن الحسن بن عبد الله البادرائي البغدادي، الذي جاء إلى دمشق وبنى المدرسة للفقهاء الشافعية وذلك عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، وأوقف عليها أوقافًا حسنة وجعل بها خزانة كتب جيدة، ثم عاد إلى بغداد وتوفي بها ، وتقع هذه المدرسة داخل باب الفراديس والسلامة شمالي جيرون وشرقي الناصرية الجوانية (أبو شامة : ١٩٦٢م، ١٩٨).

١٠- المدرسة البهنسية :

أنشأ هذه المدرسة الوزير مجد الدين المعروف بأبي الأشبال الحارث ابن مهلب، وكان وزير الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، ووقفها على المذهب الشافعي وأوقف عليها أوقافًا جيدة دارةّ، وتقع هذه المدرسة بجبل الصالحية (النعيمي: ١٩٩٠م، ج١، ٢١٥-٢١٦).

١١- المدرسة الضيائية المحمدية :

منشئ هذه المدرسة الشيخ الضياء أبو عبدالله محمد بن عبد الواحد المقدسي، وقد أوقفها على فقهاء الحنابلة، وهي تقع بسفح جبل قاسيون وشرقي الجامع المظفري (النعيمي :١٩٩٠م، ج٢، ٩٢-٩٤).

١٢- المدرسة العمرية بدمشق :

أنشأها أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد ابن قدامة الحنبلي ، وتعرف أيضًا بمدرسة أبي

عمر، وأوقفها على المذهب الحنبلي، وتقع بجبل قاسيون (ابن طولون الصالحي : ١٩٨١م، القسم ١، ٢٧٤).

١٣- المدرسة الرواحية :

تنسب هذه المدرسة إلى بانيها هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن رواحة زكي الدين أبو القاسم الأنصاري ، وتقع المدرسة داخل باب الفراديس، ووقفها ابن رواحة على المذهب الشافعي (النعيمي : ١٩٩٠م، ج١، ٢٦٥-٢٦٧).

(ب) حلب:

١- المدرسة الصاحبية:

أنشأها القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع المعروف بابن شداد، سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م)، وأوقفها على الفقه الشافعي. (ابن شداد:١٩٩١م، ج١، ٢٥١). ويقول ابن خلكان عن ابن شداد: " وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير، فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة ... ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة " (ابن خلكان: ١٩٦٨م، ج٧، ٨٩ – ٩٠)، وإن دل ذلك على شيء إنما يدل على أن ابن شداد كان له دور كبير في دعم النهضة العلمية في حلب في ذلك الوقت، وتقع هذه المدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود زنكي بين محلة السفاحية ومحلة ساحة بزة شمالي القسطل الواقع تجاه مسجد الحريزاني، جزء منها في الجنينة المعروفة الآن بجنينة الفريق في غربها وقسم منها في العرصة التي أمامها من جهة الغرب أيضًا (الحلبي: ١٩٢٥م، ج٤، ٣٩١).

٢- المدرسة الظاهرية:

أنشأها السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب، وانتهى من عمارتها عام ٦٠١هـ (١٢١٣م). ويدرّس فيها المذهب الشافعي (الحلبي: ١٩٢٥م، ج٤، ٣٥٥) وتقع خارج باب النصر، وهذه المدرسة يصفها الحلبي قائلا: " وحالتها الحاضرة تعرب عن عظمة شأنها وجلالة قدر بانيها "(الحلبي: ١٩٢٥م، ج٢، ٢٢٦).

٣- المدرسة الجمالية:

أنشأها جمال الدولة إقبال الظاهري، وهو عتيق حنيفة خاتون ابنة السلطان العادل وزوجة الظاهر صاحب حلب (ابن شداد: ١٩٩١م، ج١، ق ١، ٢٦٤)، وكانت هذه المدرسة حسنة البناء محكمة النحت. وتقع هذه المدرسة قبلي حلب خارج باب المقام قبلي الفردوس بقربها بئر ماء على حادة الطريق، ووقفت هذه المدرسة على أصحاب المذهب الحنفي (الحلبي: ١٩٢٥م، ج٤، ٤٠٨).

٤- المدرسة الشرفية:

أنشأها الشيخ الإمام شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن العجمي، وأنفق على عمارتها ما يزيد على أربعمائة ألف، وذلك عام ٦٤٠هـ (١٢٤٢م)، وأوقفت هذه المدرسة لطلبة الفقه الشافعي **(ابن شداد: ١٩٩١م، ج١، ٢٥٨)**. وتقع هذه المدرسة شرقي الجامع الكبير بدرب يعرف قديمًا بدرب الديلم.

٥- المدرسة الأتابكية:

أنشأها الأتابك[٨] شهاب الدين طغريل الظاهر، عتيق الملك الظاهر غياث الدين غازي صاحب حلب، وكان الأتابك شهاب الدين طغريل نائب السلطان بقلعة حلب ومدير الدولة بعد وفاة معتقه، واكتمل بناء هذه المدرسة سنة ٦١٨هـ (١٢٢١م) **(ابن شداد:١٩٩١م، ج١، ق١، ٢٧٣)**. وهي حنفية المذهب.

٦- مدرسة الفردوس:

أنشأت هذه المدرسة الصاحبة الملكة ضيفة خاتون بنت السلطان العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، وتقع هذه المدرسة خارج باب المقام، وهي موقوفة على أصحاب المذهب الشافعي **(الحلبي: ١٩٢٥م، ج٢، ٢٦٢)**. وهي مثال جميل من أمثلة الهندسة العربية **(علي: ١٩٢٨م، ج٦، ١٠٨)**.

٧- المدرسة الهروية:

هذه المدرسة من إنشاء الملك الظاهري غازي صاحب حلب، وقام بالتدريس بها الشيخ أبو الحسن بن علي الهروي وهي شافعية المذهب **(ابن خلكان: ١٩٦٨م، ج٣، ٣٤٦ – ٣٤٧)**.

٨- المدرسة الحسامية:

أنشأها الأمير حسام الدين محمود بن ختلو وذلك عام ٦١٥هـ (١٢١٨م)، وتقع غرب قلعة حلب، وهي مدرسة حنفية المذهب **(ابن شداد:١٩٩١م، ج١، ٢٧٩)**.

(ج) بيت المقدس:

١- المدرسة الصلاحية:

وهذه أول مدرسة أنشئت ببيت المقدس في العصر الأيوبي، وكانت المدرسة تعرف قبل الإسلام باسم صند حنة[٩]، ويقال أن بها قبر حنة أم السيدة مريم أم المسيح عليه السلام، ثم صارت في الإسلام دارًا للعلم. **(أبو شامة: ١٩٦٢م، ج٢، ١١٤ – ١١٥)**، وكان يقوم بالتدريس فيها في ذلك الوقت الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي ويقول ابن واصل: " ثم لما ملك الفرنج القدس سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، فلما استرد السلطان القدس أعادها مدرسة ووقف عليها وقوفًا جليلة "**(ابن واصل: ١٩٥٧م، ج٢، ٤٠٧)**.

وقد أسند السلطان صلاح الدين للشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن خضر المقدسي

وكيل بيت المال بالقدس الشريف بيع الأملاك المختصة ببيت المال بالقدس الشريف، ثم اشترى كنيسة صند حنة، وهي المدرسة الصلاحية **(السبكي:١٩٩٢م، ١٢٦)**. وكان ذلك في عام ٥٨٨هـ (١١٩٢م)، وهذه المدرسة موقوفة على المذهب الشافعي، وكانت تقع عند باب الأسباط وعين دار البطرك.

٢- المدرسة الأفضلية:

أنشأها الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن السلطان صلاح الدين، وكانت تعرف قديمًا بالقبة بحارة المغاربة، وكانت وقفاً على المذهب المالكي، وأقيمت هذه المدرسة عام ٥٨٩هـ (١١٩٣م) **(عبد المهدي:١٩٨١م، ج١، ٣٣٦)**.

٣- المدرسة المعظمية:

وهذه المدرسة تسبق المدرسة المعظمية بدمشق أنشأها الملك المعظم عيسى، وكانت تسمى بالمدرسة الحنفية، حيث وقفها أيضًا على الفقه الحنفي، وأنشئت عام ٦١٤ هـ (١٢١٧م)، وكانت تقع عند باب المسجد الأقصى المعروف بباب الدويدارية، مقابل باب شرف الأنبياء **(علي: ١٩٢٨م، ج٦، ١٢٣)**.

٤- المدرسة الميمونية:

أقامها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون بن عبد الله القصري، وهو خازندار السلطان صلاح الدين، وأنشئت عام ٥٩٣هـ (١١٩٦م) ووقفها على المذهب الشافعي، وكانت هذه المدرسة تقع عند باب الساهرة **(عبدالمهدي:١٩٨١م، ج١، ٣٤٠)**.

ب- المدارس الثنائية:

أولاً: المدارس الثنائية بمصر:

١- المدرسة الفاضلية:

تنسب هذه المدرسة إلى مؤسسها القاضي الفاضل **(أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي البيساني)** وزير صلاح الدين وكاتب السر والإنشاء، وهي المدرسة الأولى في العصر الأيوبي التي قامت بتدريس مذهبين معًا هما الشافعي والمالكي، وذلك عام ٥٨٠هـ (١١٨٤ - ١١٨٥م). وجعلها جوار داره بدرب ملوخيا في حارة قائد القواد شمال شرق القصر الفاطمي الشرقي في حي الجمالية الآن. ويذكر المقريزي أن " هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها "**(المقريزي:١٢٧٠هـ، ج٤، ١٧٩)**.

٢- المدرسة القطبية:

أنشأت هذه المدرسة الست الجليلة الكبرى عصمت الدين مؤنسة خاتون وهي ابنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد، وإليه نسبت المدرسة، وكان يدرس بها المذهبان الشافعي والحنفي، وتقع في أول حارة زويلة **(المقريزي: ١٢٧٠هـ، ج٤، ٢٠٠)**.

ثانيًا: المدارس الثنائية بالشام :

(أ) دمشق:

١- المدرسة الدماغية:

أنشأتها السيدة عائشة، جدة فارس الدين بن الدماغ وزوجة شجاع الدين بن الدماغ العادلي، وكان يدرس بهذه المدرسة المذهبان الشافعي والحنفي، وتقع داخل باب الفرج شمالي العمادية (**النعيمي:١٩٩٠م، ج١، ٣٠٨**).

٢- المدرسة العذراوية:

أنشأتها السيدة عذراء بنت الأمير نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أخي صلاح الدين ووقفتها على المذهبين الشافعي والحنفي، وذلك عام ٥٨٠هـ (١١٨٤ – ١١٨٥م)، وتقع بحارة الغرباء داخل باب النصر المسمى بباب دار السعادة (**ابن شداد: ١٩٥٦م، ج٢، ٢٦٠**).

(ب) حلب:

١- المدرسة السلطانية:

أسسها الملك الظاهر، ولذلك تعرف أيضًا بالمدرسة الظاهرية، ولكنه توفي قبل أن تتم وذلك عام ٦١٣هـ (١٢١٦م)، ثم شرع في إكمالها شهاب الدين طغرل بك أتابك الملك العزيز سنة ٦٣٠هـ(١٢٣٢م)، وكانت وقفًا لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي، وتقع تجاه القلعة (**ابن شداد: ١٩٩٠م، ج١، ٢٥٢**).

٢- المدرسة السيفية:

تنسب إلى منشئها الأمير سيف الدين علي ابن علم الدين سليمان بن جندر، وقد أنشئت عام ٦١٧هـ (١٢٢٠م) لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي.

والأمير سيف الدين نفسه أنشأ مدرسة آخرى لتدريس المذهبين المالكي والحنبلي، وكانت تقع تحت القلعة.

ج- المدارس الرباعية:

وهي مدرسة واحدة أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بمصر، عام ٦٤١هـ (١٢٤٣م) وتسمى "المدرسة الصالحية"، حيث أمر الصالح نجم الدين أيوب بهدم جزء من القصر كموقع للمدرسة، وهذه المدرسة تقع بخط بين القصرين وهي من جملة القصر، الكبير الشرقي الفاطمي، وهذه المدرسة كانت تدرس المذاهب الأربعة، الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي. وبالتالي فإن الملك الصالح نجم الدين أيوب هو أول من أسس مدرسة تدرس المذاهب الأربعة في مكان واحد، وتعتبر هذه المدرسة من أجلِّ مدارس القاهرة وقد اشتملت هذه المدرسة على أربع أواوين، لكل مذهب إيوان، وقد أوقف عليها الملك الصالح نجم الدين أيوب أوقافًا كثيرة بالقاهرة وخارجها شملت الصاغة التي

أمامها و أماكن بالقاهرة ومدينة المحلة الغربية وقطع أرض جزائر بالأعمال الخيرية الأطفيحية (المقريزي:١٢٧٠هـ، ج٤، ٢٠٩).

والجدير بالذكر أن سلاطين المماليك واصلوا رصد الأوقاف على هذه المدرسة؛ مما أدى إلى استمرار قيامها بدورها العلمي طوال العصر المملوكي، وذلك يدل على تطور العملية التعليمية حيث كانت هذه المدرسة بمثابة معهد علمي كبير لدراسة العلوم الدينية ، وما تزال بقايا هذه المدرسة قائمة حتى الآن تمثل أحد آثار مصر الإسلامية (ابن واصل :١٩٦٠م، ج٣، ٤-٥).

وقال فيها الأديب جمال الدين أبي المظفر عبد الرحمن بن أبي سعيد بن محمد بن عمر أبي القاسم المعروف بابن السبيرة الشاعر:

بنيت لأرباب العلوم مدارسا

لتنجو بها من هول يوم المهالك

(المقريزي:١٢٧٠م، ج٤، ٢٠٩).

ثانيًا: دور الحديث:

إن الاهتمام بالأحاديث النبوية الشريفة في هذه الفترة التي كانت تتسم بالفكر الشيعي، كانت جزءاً من التحول إلى الفكر السني، وهذه الدور كانت خاصة بتدريس الحديث النبوي الشريف، وكان يطلق عليها دور الحديث أو دور السنة النبوية أو المحمدية. (معروف:١٩٦٦م، ١٥).

وفيما يلي عرض لمدارس الحديث في مصر والشام، ويلاحظ من خلال هذا العرض أن مدارس الحديث في مصر هي مدرسة دار الحديث الكاملية فقط، أما مدارس الحديث في الشام فكان عددها سبع مدارس، وترى الباحثة أن ندرة مدارس الحديث ترجع إلى أنه كان التركيز على المدارس الفقهية بأنواعها المختلفة.

أولاً: دور الحديث في مصر:

هذا النوع من المدارس كان نادرًا بمصر حتى أنه لم يوجد إلا دار واحدة وهي:

دار الحديث الكاملية:

تنسب إلى السلطان الكامل الأيوبي، وتعتبر أول دار للحديث النبوي في مصر، قيل إنه أنشأها عام ٦٢١هـ (١٢٢٤م)، وقيل أنشئت بعد ذلك التاريخ بعام واحد، وربما كانت فكرة الإنشاء في عام ٦٢١هـ (١٢٢٤م)، ثم بدأ تنفيذ البناء في عام ٦٢٢هـ (١٢٢٥م)، وتقع هذه المدرسة بين القصرين.

والجدير بالذكر أن هذه المدرسة وقفها السلطان الكامل في البداية على المشتغلين بالحديث النبوي، ثم أصبح يدرس فيها الفقه الشافعي، وأصبح الوقف يشمل أيضًا فقهاء الشافعية، وإن دل ذلك على شيء، إنما يدل على مدى توسع العملية التعليمية في ذلك الصرح

الكبير الذي شمل دراسة الحديث النبوي الشريف والفقه الشافعي. (السيوطي:١٩٧٨م، ج٢، ٢٧٧).

ثانيًا: دور الحديث في الشام:

(أ) دمشق:

تعددت دور الحديث في دمشق وتتمثل في:

١- دار الحديث الأشرفية الجوانية:

أنشأها الملك الأشرف موسى بن العادل أخو السلطان الكامل، وقد بدئ في إنشائها عام ٦٢٨هـ (١٢٣١م) واستغرق البناء عامين حيث كان الافتتاح في ليلة النصف من شعبان عام ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) (المقريزي: ١٩٩٧م، ج١، ٣٤٦). وتقع هذه المدرسة داخل دمشق بجوار القلعة من جهتها الشرقية. وتعتبر هذه الدار من أشهر دور الحديث بدمشق، والسبب في ذلك أن قانونها الداخلي ينص على أن يتولى التدريس فيها أعلم رجل بالحديث في مدينة دمشق، وأن يجلب إليها من له ميزة في رواية الحديث لا توجد في غيره، سواء في دمشق أو في غيرها من البلدان، ليستفاد من علمه واختصاصه، لذلك صار في هذه المدرسة صفوة المدرسين والمحدثين لم توجد في غيرها من دور الحديث (السبكي:١٩٩٢م، ج٢، ١٠٨-١١٣).

٢- دار الحديث الأشرفية البرانية:

ومنشئ هذه الدار هو الملك الأشرف موسى ابن العادل الذي أنشأ دار الحديث الأشرفية التي أشرنا إليها سلفاً، وكانت تقع بسفح جبل قاسيون الذي يقع بشمال دمشق، وعرفت هذه المدرسة أيضًا بالأشرفية المقدسية نسبة إلى الحافظ جمال الدين عبدالله المقدسي، الذي أنشئت هذه المدرسة من أجله إلا أنه توفي قبل تمام بنائها (بدران:١٩٦٠م، ٢٥).

٣- دار الحديث الفاضلية:

تنسب هذه الدار إلى القاضي الفاضل البيساني وزير صلاح الدين وكاتب السر والإنشاء، وسبق له أن أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤-١١٨٥م)، أنشأها بالكلاسة، وتقع هذه الدار بجوار تربة صلاح الدين الأيوبي.

٤- دار الحديث الكرّوسية:

وتنسب هذه الدار إلى مؤسسها محمد بن عقيل ابن كرّوس السلمي - محتسب دمشق - وأنشئت عام ٦٤١هـ (١٢٤٣م)، وتقع هذه الدار غربي مأذنة الشحم شمالي السامرية. (النعيمي:١٩٩٠م، ج١، ٥٤-٥٥).

٥- دار الحديث العروية:

تنسب إلى منشئها المحدث شرف الدين محمد بن عروة الموصلي - أحد خواص أصحاب الملك المعظم عيسى - وهذه الدار تقع بمشهد عروة بالجانب الشرقي من صحن الجامع الأموي

الذي كان يعرف قديمًا بمشهد علي رضي الله عنه، ثم عرف بعد ذلك بمشهد عروة (أي المحدث شرف الدين محمد بن عروة صاحب هذه الدار التي نحن بصددها) (النعيمي:١٩٩٠م، ج١، ٨٢).

(ب) حلب:

أنشئ في حلب داران للحديث هما:

١- دار الحديث التي أنشأها القاضي بهاء الدين بن شداد إلى جانب مدرسته الصاحبية، "وكانت هذه الدار مجمعًا لأهل الحديث يسكنون بها ويقرأون ويسمعون ويكتبون ...". (الحلبي: ١٩٢٥م، ج٤، ٣٩٣).

٢- دار الحديث التي أنشأها بدر الدين بن الداية عام ٦٣٢هـ (١٢٣٥م)، وتقع هذه الدار في اتجاه باب القلعة خارج بوابة الشحنة. (ابن الشحنة: ١٩٠٩م، ١٢٣).

ثالثًا: المدارس النحوية:

وهذا النوع من المدارس كان قليل الانتشار وقد خصص لدراسة اللغة العربية، وكان النحو من أبرز العلوم التي تدرس بها.

المدرسة النحوية:

أنشأ الملك المعظم عيسى بن العادل بعض المؤسسات العلمية، ومن هذه المؤسسات المدرسة النحوية التي أنشأها في عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م)، ببيت المقدس، والتي تخصصت في تدريس علوم اللغة العربية عامةً، والنحو خاصةً، كما يتضح من اسمها، وتقع هذه المدرسة على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب، والذي دفع الملك المعظم لإنشاء هذه المدرسة هو اهتمامه الكبير بدراسة العربية، فقد قرأ كتاب سيبويه وديوان الحماسة، وكتاب الإيضاح، فضلاً عن أنه كان أديبًا بليغًا ونحويًا، وله ديوان شعر ومصنفات في العربية (ابن واصل: ١٩٧٢م، ج٤، ٢١٠).

رابعًا: المدارس الطبية:

وهذه المدارس أنشئت لتدريس العلوم الطبية، والجدير بالذكر أن هذه المدارس أنشئت متأخرة عن المدارس سابقة الذكر، فضلاً عن أنها كانت محدودة الانتشار بالمقارنة بالمدارس الفقهية ودور الحديث، ويرجع ذلك إلى أن إنشاء المدارس الفقهية ودور الحديث كان لمناهضة الفكر الشيعي وإحياء الفكر السني. ولأن الطب ودراسته يتطلب إجراء تجارب وتطبيقات طبية ليست هذه المدارس مناسبة لها، ولا يمكن أن تعتمد على الدراسات النظرية فقط، وبالتالي ظلت البيمارستانات هي المكان العملي والأمثل لتدريس الطب حتى وقتنا الحاضر، ومن هذه المدارس:

١- بيمارستان صلاح الدين:

أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبي بيمارستانًا في بيت المقدس، وهو من المؤسسات

التعليمية العظيمة التي وجدت في الدولة الإسلامية في عصره، وكان هذا البيمارستان مؤسسة تعليمية للتدريب العملي والتدريس النظري لطلاب الطب، وأمده السلطان صلاح الدين بالأدوية والعقاقير، وأوقف عليه أوقافًا كثيرة لضمان استمرار قيامه بمهامه التعليمية والعلاجية على حد سواء (**غوانمة: ١٩٩٩م، ٦٤**).

٢- المدرسة الدخوارية:

أنشأها الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم ابن علي بن حامد المعروف بالدخوار، وكان ذلك عام ٦٢٢هـ (١٢٢٥م)، وتقع هذه المدرسة بمدينة دمشق بالصاغة العتيقة بقرب الخضراء قبلي الجامع الأموي، وكان أول من درس بها واقفها الدخوار الذي برع في الطب وصنّف في صناعة الطب تصانيف كثيرة، وتخرج على يديه جماعة كبيرة من الأطباء (**ابن أبي أصيبعة: ١٩٦٥م، ٧٣٣**).

٣- المدرسة التي أنشأها الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بيمارستانًا بحمص، ووفر له الأطباء من مجبرين[١٠] وطبائعيين[١١] وكحالين[١٢]، وأمده بكل ما يحتاج إليه من الأدوية والأشربة وأوقف عليه الكثير من الأوقاف (**ابن نظيف الحموي:١٩٨١م، ٢٢**).

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الحركة المدرسية بدأت في بلاد الشام قبل مصر، حيث حمل أبناء البيت الزنكي هذه الرسالة، أما في مصر فكان لتغلغل الفكر الشيعي أثره في تأخر هذه الحركة السنية التي بدأت على يد صلاح الدين بإنشاء مدرستين منذ أن كان وزيرًا للعاضد، وتوالى إنشاء المدارس بعد تأسيس الدولة الأيوبية، وهذه المدارس تنافس على إنشائها السلاطين والأمراء والعامة والخاصة، ولم يقتصر إنشاء المدارس على الرجال، بل ساهمت المرأة في هذا المجال، كما تعددت المدارس سواء مدارس فقهية أو نحوية أو طبية، وهذه المدارس مماثلة للجامعات بمفهوم العصر الحديث، سواء في تنوع الدراسات التخصصية أو رقي مستواها.

ولأن المدرسة مؤسسة هدفها إثراء الحركة التعليمية، كان لابد أن تلحق بكل واحدة منها مكتبة تخدم التخصص أو المذهب الذي تخصصت فيه، حيث إن المكتبة تمثل جزءاً هامًا من الأداة التعليمية، كي يرجع إليها المدرسون والطلاب في البحث والاستقصاء (**القلقشندي: ١٩٨٧م، ج٣، ٣٦٧- ٣٦٨**). فضلاً عن كتب أخرى تدخل في باب المعارف العامة.

المكتبات الملحقة بالمدارس:

أدرك الأسلاف أن الكتاب أداة ضرورية في العملية التعليمية لا غنى عنه للمعلم والمتعلم، فقد واكب إنشاء المدارس الاهتمام بتوفير أكبر قدر

من الكتب فيها، منها ما يتصل بالمجال الموضوعي أو المجالات الموضوعية التي تتخصص المدرسة فيها، ومنها ما يدخل في باب المعارف العامة التي يحتاج إليها أي طالب علم يرغب في تكوين ثقافة واسعة راقية.

ومن ثم كان من ينشئ مدرسة يجعل فيها خزانة كتب وقفية لها نصيب من الموارد المالية، **(ساعاتي: ١٩٩٦م، ٧٦-٧٧)** لاستمرار قيام المدرسة والمكتبة بدورها في إثراء العملية التعليمية.

ولذلك لم تَخْلُ مدرسة من المدارس من مكتبة تتبعها مزودة بمجموعة صغيرة أو كبيرة من الكتب تبعًا لمكانة المدرسة ومقدار الوقف عليها واهتمام أولي الأمر بها، لاسيما إن كان هذا الوقف من العلماء والفضلاء **(عبدالعاطي:١٩٨٤م، ٢٤٩- ٢٥٠)**.

أولاً: المكتبات المدرسية في مصر:

١- مكتبة المدرسة الفاضلية بالقاهرة:

يقال إن هذه المكتبة هي أجمل المكتبات المدرسية على الإطلاق، ولقد ضمت هذه المكتبة مجموعات كثيرة من نفائس الكتب وأمهاتها التي تخدم مناهج الدراسة في الفقه الشافعي والمالكي، ولا يستبعد أن يكون فيها كتب أخرى في مجالات متعددة، وكان من بين مجموعاتها " مصحف قرآن كبير القدر جدًا مكتوب بالخط الأول الذي يعرف بالكوفي تسميه الناس مصحف عثمان، وقد دفع القاضي الفاضل لشرائه ثلاثين ألف دينارٍ، ووضع المصحف بمفرده في خزانة خاصة قرب محراب المدرسة وعليه مهابة وجلال" **(خليفة:١٩٩٧م، ٣٣٥-٣٣٦)**. وأنفق القاضي أموالاً طائلة على كتبه التي كانت في كل فن، وكان يجتلبها من كل جهة **(المقريزي:١٢٧٠هـ ،ج٤، ١٩٧)**.

واشتملت المكتبة على نسخ مكررة من الكتاب الواحد، فكان عنده معجم الصحاح ثماني عشرة نسخة، وذكر المقريزي أن ابن صور الكتبي حكى له "أن ابنه القاضي الأشرف التمس مني أن أطلب له نسخة الحماسة ليقرأها فأعلمت القاضي الفاضل فاستحضر الخادم الحماسات فأحضر له خمسًا وثلاثين نسخة، وصار ينفض نسخة نسخة ويقول هذه بخط فلان، وهذه عليها خط فلان حتى أتى على الجميع، وقال ليس فيها ما يصلح للصبيان، وأمرني أن أشتري له نسخة بدينار" **(المقريزي:١٢٧٠هـ، ج٤، ١٩٩)**.

وقد قدرت مجموعة المكتبة بأكثر من مائة ألف مجلد في سائر العلوم، انتقاها القاضي الفاضل في مكتبته الخاصة التي قدرت مجموعتها كحد أدنى بثلاثين ألف مجلد

وكحد أقصى بمليون مجلد، وهناك أرقام كثيرة بين هذين الرقمين، وإن دل ذلك على شيء إنما يدل على أنها كانت ضخمة بلا شك.

٢- مكتبة المدرسة الصاحبية:

ألحق الصاحب صفي الدين بن شكر منشئ هذه المدرسة خزانة كتب بها، إلا أن المصادر التاريخية لم تقدم أي وصف لهذه الخزانة أو محتوياتها.

٣- مكتبة دار الحديث الكاملية:

هذه المكتبة من أشهر المكتبات المدرسية في أوائل القرن السابع الهجري **(طرازي: د. ت، ج١، ١٨٤)**، ولكن لم تحصل الباحثة على أي تفاصيل عن هذه المكتبة، ولكن ما يؤكد أنه كان بها مكتبة ما ذكره السيوطي في كتابه "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة"، ذكر في ترجمة محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم الميدومي أنه تولى خزانة كتب الكاملية، ثم طلب لمشيخته، فامتنع، ثم وليها إلى أن مات **(السيوطي: ١٩٦٤م، ج١، ١٢)**.

ثانيًا: المكتبات المدرسية في الشام:

(أ) المكتبات المدرسية في دمشق:

١- مكتبة المدرسة العادلية:

إن أول من فكر في بناء هذه المدرسة هو نور الدين محمود زنكي كما سبق ذكره، كي يدرس فيها قطب الدين مسعود بن محمد ابن مسعود النيسابوري شيخ الشافعية، ولكن نور الدين توفي قبل أن تتم، فشرع ابنه سيف الدين في إكمالها، غير أنه توفي أيضًا قبل أن يتم بناؤها، ثم أقامها من جديد الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي، ولكن الشيخ قطب الدين مسعود توفي في عام ٥٧٨ هـ (١١٨٢م) قبل أن تقام المدرسة، وكان أوقف كتبه على طلبة العلم دون تحديد، ثم أن هذه الكتب نقلت إلى المدرسة العادلية بعد أن تم بناؤها.

ولقد وجد في هذه المدرسة خزانة كتب عامرة وجامعة **(أبو شامة: ١٩٦٢م، ج١، ٢١٤)**.

ويصف ابن خلكان محتويات هذه المدرسة قائلاً: "رأيت في شوال سنة خمس وستين وستمائة، في خزانة الكتب بالمدرسة العادلية بدمشق المحروسة كتاب التقريب في ست مجلدات، وهو من حساب عشر مجلدات، كتب عليه أنه تصنيف أبي الحسن القاسم بن أبي بكر القفال الشاشي، وقد كانت النسخة المذكورة للشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري، وعليها خطه بأنه وقفها". **(ابن خلكان: ١٩٦٨م، ج٤، ٢٠٠- ٢٠١)**.

٢- مكتبة المدرسة الشبلية:

عندما أنشأ كافور بن عبد الله الحسامي شبل الدولة مدرسته أوقف عليها أوقافًا ونقل

إليها الكتب الكثيرة، ومن الكتب التي كانت في خزانة هذه المدرسة كتاب البدائع للإمام أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي وهو في سبع مجلدات، وأوقف كافور باني المدرسة كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (سبط بن الجوزي:١٩٥١م، ج٨، ٦٤٢).

٣- مكتبة المدرسة العمرية:

ضمت هذه المدرسة عدة خزائن كتب وقفية من أعظمها "كتب السيد الحسيني، ومنها كتب الشيخ قوام الدين الحنفي، ومنها كتب الشمس البانياسي، ومنها كتب المحدث جمال الدين بن عبدالهادي، ومنها كتب شهاب الدين بن منصور ..."، وفي هذه المكتبة "مصحف الإمام علي بن أبي طالب بخط يده" (ابن طولون الصالحي:١٩٨١م، القسم١، ٢٧٤)، وكان من بين الكتب التي وقفها عبد الوهاب الحسيني الدمشقي نسخة من القاموس المحيط بخط يده (السخاوي: د.ت، ٦، ١)، ويصف بدران المدرسة قائلاً: "وقد كان بها خزانة كتب لا نظير لها" (بدران:١٩٦٠م، ٢٤٤).

٤- مكتبة المدرسة البادرائية:

أوقف منشؤها نجم الدين أبو محمد عبدالله بن أبي الوفاء البادرائي البغدادي هذه المدرسة لفقهاء الشافعية، وأوقف عليها "أوقافًا حسنة دارة، وجعل بها خزانة كتب نافعة"، ومن الكتب الموقوفة بهذه المكتبة كتاب الحاوي للإمام الماوردي الحاوي (أبو شامة:١٩٦٢م، ١٩٨).

٥- مكتبة المدرسة البهنسية:

حينما أنشأ الوزير مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهلب وزير الملك الأشرف مظفر الدين ابن الملك العادل أيوب، هذه المدرسة جعل كتبه بها وقفًا وأجرى عليها أوقافًا كثيرة دارة (النعيمي:١٩٩٠م، ج١، ٢١٥).

٦- مكتبة المدرسة الرواحية:

حينما أنشأ ابن رواحة مدرسته أوقف عليها أوقافًا حسنة، وأوقف عليها خزانة كتب جليلة جعلها في الجانب الغربي من إيوان المدرسة، وأوقف الشيخ البرهان السويدي كتبه بها (ابن شداد:١٩٥٦م، ج٢، ٢٤١).

٧- مكتبة دار الحديث الأشرفية البرانية:

نالت مكتبة هذه المدرسة اهتمام علماء الحديث، وعندما أنشأها الملك الأشرف موسى بن العادل كان قد نقل إليها كتبًا كثيرة نفيسة، ونمت هذه المكتبة بما ساهم به العلماء من وقف الكتب عليها، وكانت هذه المكتبة محط اهتمامهم (سبط بن الجوزي:١٩٥١م، ج٨، ٧٦٣).

٨- مكتبة دار الحديث الأشرفية الجوانية:

وكما سلف فإن هذه الدار حظيت بتميز كبير؛ فهي أشهر دور الحديث بدمشق، وكان

بها مكتبة خاصة للمشتغلين فيها، وسوف يأتي الحديث عنها لاحقًا.

٩- دار الحديث الضيائية:

أوقف منشئ هذه المدرسة الفقيه ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي كتبًا عظيمة وساهم في إثراء هذه المكتبة وقف الكثير من العلماء كتبهم عليها، منهم "موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، وعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي، وعثمان بن عمر الحاجب" وغيرهم كثير، وتجمع في مكتبة هذه المدرسة من الكتب الوقفية ما دفع بجمال الدين بن عبد الهادي إلى القول: "بأنه كان بها كتب الدنيا والأجزاء الحديثية"، حتى يقال: "إنه كان فيها التوراة والإنجيل". **(ابن طولون:١٩٨١م، القسم الأول، ٢٧٤)**.

١٠- مكتبة المدرسة الدخوارية:

لقد جمع مؤسس هذه المدرسة الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد الدخوار كتبًا كثيرة من الطب وغيره تبلغ أكثر من مائة مجلد **(ابن أبي أصيبعة: ١٩٦٥م، ٧٢٨)** واقتنى لمدرسته من آلات النحاس التي يحتاج إليها في علم الفلك ما لم يكن عند غيره، مما أدى إلى شهرة المدرسة وزيادة مكانتا العلمية، **(طرازي: دت، ج١، ٢٧٤)**، وقد أوصى الدخوار أن تكون كتبه في المدرسة على المشتغلين بالطب والأطباء **(سبط بن الجوزي:١٩٥١م، ج٨، ٦٧٢)**.

ب- المكتبات المدرسية في حلب :

١- مكتبة المدرسة الشرفية:

مكتبة هذه المدرسة تعتبر من أضخم المكتبات المدرسية، حيث ضمت مجموعة كبيرة من الكتب القيمة في كل العلوم حيث اقتنت كتبًا في السنة النبوية، وتفسير القرآن الكريم، وكتب الفقه، وكتب النحو وغير ذلك، ولقد عدد ابن العجمي بعض هذه الكتب قائلاً:"فمن كتبها، كتاب المسند للإمام أحمد، والأم وجميع كتب الإمام الشافعي وكتب الصحاح، كتفسير الثعلبي وغيره من التفاسير كالنهاية والحاوي الكبير والإبانة والتتمة والذخائر والشامل، ومن الحديث الكتب الستة، وكان بها جميع كتب المذاهب، ولم يفته شيء سوى كتب الرافعي والنووي؛ لأنهما لم تصل كتبهما إذ ذاك إلى حلب، ... وكان بها جميع كتب الغزالي" **(الحلبي: ١٩٢٥م، ج٤، ٤٦٠)**.

٢- مكتبة المدرسة الهروية:

اشتملت هذه المكتبة مجموعات هامة من الكتب. **(الحلبي:١٩٢٥م، ج٤، ٤٦٠)**.

ج- المكتبات المدرسية في بيت المقدس :

ثبت أن الملك المعظم عيسى وقف على المدرسة النحوية بالقدس كتبًا كثيرة من

جملتها كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت (المقريزي: ١٢٧٠هـ، ج٤، ١٩٧).

من كل ما تقدم يتضح لنا أن هذه المدارس أشبه بالجامعات في الوقت الحاضر، ولكل مدرسة مذهبها الذي تتبعه وإن كان بعضها يشتمل على مذهبين وواحدة كانت للمذاهب الأربعة فهي أشبه بكليات أصول الدين، كذلك مدارس الطب تماثل كليات الطب في وقتنا الحاضر، والجدير بالذكر أن مثل هذه الدراسات تحتاج إلى دراسات ميدانية وحقلية لاستخلاص الأدوية من النباتات المختلفة، كما كان يفعل الطبيب الصيدلاني رشيد الدين بن الصوري الذي كان "أوحدًا في معرفة الأدوية المفردة وماهيتها واختلاف أسمائها، ووصفاتها وتحقيق خواصها، وتأثيراتها" (ابن أبي أصيبعة: ١٩٦٥م، ٧٠٠)، وكان متميزًا في صناعة الطب كل ذلك كان يحتاج إلى فريق عمل كبير ومنظم، وكذلك تحتاج إلى الدعم المالي، كما تفعل الحكومات الآن.

ثالثًا: فئات العاملين وتصنيفاتهم بمكتبات المدارس الأيوبية :

وكما حظيت المكتبات المدرسية باهتمام الواقفين والمؤسسين، فهذا الاهتمام لم يكن من الناحية العلمية فقط، وما تضمه المكتبة من كتب ونوادر المخطوطات، بل أيضًا من الناحية الإدارية التي كان لها عظيم الأثر في تنظيم العمل، وتسهيل عملية حفظ الكتب والاستفادة منها بطرق عملية، وقد استلزم ذلك تعيين مجموعة من الموظفين تتفاوت مهامهم ومكانتهم طبقًا للعمل المنوط بهم. سوف تتناول الباحثة أهم هذه الوظائف:

١- الخازن :

كان يشرف على المكتبة هيئة من المسئولين، وهؤلاء المسئولون أهمهم الخازن (أي أمين المكتبة الآن)، ولم يكن عمل الخازن عملاً إداريًا فحسب؛ بل كان علمياً وإدارياً في آن واحد، ولهذا اختير لشغل مناصب خزانة الكتب (أو أمناء المكتبة) جماعة من فحول العلماء ومشاهير الأدباء، لأن الخازن يمد المكتبة ببنات أفكار العلماء ومؤلفاتهم الجديدة، ويشرف على الفهارس وحسن تنظيمها وشمولها، وييسر للعلماء والقراء الحصول على ما يريدون، ويسهل لهم ما يطلبون، هذا إلى جانب محافظته على الكتب من التلف والضياع، وترميم شعثها وحبكها عند احتياجها للحبك، والضن بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدم في العارية (الإعارة) الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب، على الأغنياء (السبكي، معيد النعم: ١٩٤٨م، ١١١).

ولذلك كان يشترط أن يكون الخازن من أهل العلم ومتصفًا بالأمانة والديانة **(متولي: ٢٠٠٤م، ١٧٢)**. ومن ثم فقد تولى هذا المنصب مجموعة من المشهورين نذكر منهم:

- ❖ محمد بن نصر القيسراني والذي وصفه الذهبي بـ "سيد الشعراء" وقد عمل خازنًا للكتب في خزانة حلب **(الذهبي: ١٩٨٣م، ج٢، ١٥٧)**.
- ❖ أبو عبد الله محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجياني، وكان عالمًا محدثًا "سلمت إليه خزانة الكتب النورية" في حلب **(المقري: ١٩٦٨م، ج٢، ١٥٧)**.
- ❖ الحسين بن علي بن بشارة شرف الدين الشبلي، وكان من فقهاء الحنفية ورجال الحديث، وكان خازنًا للكتب بدار الحديث الأشرفية بدمشق **(التميمي الداري:١٩٨٣م، ج٣، ١٥٠)**.
- ❖ أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الشمسي المقدسي السيلي الحنبلي، وكان إمامًا في الفرائض والحساب والوصايا، وقد عمل خازنًا لمكتبة المدرسة الضيائية **(السخاوي: د . ت، ج٦، ٢٨٣)**.

ويتضح من الأسماء السابقة أن منصب الخازن كانت له أهمية، فكل من تم ذكرهم كانوا من العلماء الأعلام الذين كانت لهم خبرة واسعة بالكتب من خلال اشتغالهم الدائم بالعلم. والجدير بالذكر أن هذا المنصب كان يتطلب دقة في العمل، فضلاً عن مراعاة متطلبات المستفيدين من المكتبة.

٢- النساخ:

من مفاخر المسلمين أنهم أدركوا في العصور الوسطى ضرورة وجود قسم للطبع والنشر بالمكتبة، ولم تكن وسائل الطبع الحديثة قد وجدت بعد، فعينوا بالمكتبات نُساخًا عرفوا بالدقة وجودة الخط، وكان يؤتى بالكتب الحديثة لهؤلاء النساخ لينقلوا صورة منها تزود بها المكتبة، فإذا ضن مؤلف الكتاب أو مالكه بإعارته بضعة أيام للنساخ خوفًا عليه، فإن من الممكن أن ينتقل النساخ إليه ليقوموا بعملية الكتابة تحت إشرافه، والحق أن هؤلاء النساخ أدوا واجبهم خير أداء، وأمدوا المكتبات بكل جديد وطريف دون تأخير أو تقصير، ومن الشروط التي ينبغي توافرها في الناسخ أن يلحظ الدقة والإتقان في عمله، بحيث لا تدعوه الرغبة في سرعة الإنجاز أن يحذف في أثناء الكتابة شيئًا أو أن يسهو عنه، وعليه أن يتبع تعليمات مستأجرة بملاحظة عدد الأوراق، ونظام الكتابة، وعدد الأسطر في كل صفحة، ولون الحبر وغير ذلك، وكان ناسخ "معيد النعم" مثالاً لهؤلاء النساخ **(السبكي: ١٩٤٨م، ١٣٨)**.

كما كان للقاضي الفاضل عدد من النساخ لا يفترون يكتبون له، (**شلبي: ١٩٧٨م، ١٦٨**). وكذلك كان بدار الحديث الأشرفية مجموعة من النساخ .

٣- المجلدون:

وهذه الفئة تقوم بتجليد ما ينسخه النساخ، كما يقومون بترميم وإصلاح ما يطرأ على الكتب من كثرة الاستعمال (**عجاج:٨٣، ٧٧**).

والجدير بالذكر أن كلمتي الناسخ والمجلد كانتا متلازمتين تقريبًا في جميع المصادر فكلما وردت كلمة الناسخ وردت معها كلمة المجلد (**شلبي: ١٩٧٨م، ١٦٩**).

وقد وصل فن التجليد عند المسلمين إلى القمة، وأصبح آية في الإبداع والجمال، وأقدم ما عرف عن تجليد الكتب عند المسلمين هو ذلك الذي كان يقوم به الصناع المصريون المهرة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، ثم تطور فن التجليد عند المسلمين حتى أصبح التذهيب والتزويق شائعين، وأصبح مجلد الكتب في العالم الإسلامي معروفًا بإتقانه وسيطرته على هذا الفن الجميل (**شلبي: ١٩٧٨م، ١٦٩- ١٧٦**). وتقع على عاتق المجلد مسئولية حفظ أوراق الكتاب من التلف، والعناية بمظهره الخارجي بحيث يتلاءم ذلك مع قيمة الكتاب ومحتوياته، وخاصة المصاحف الكريمة (**إبراهيم:١٩٦٢م، ٦٠**) ووظيفة المجلد من الوظائف الموجودة بالمكتبات في هذه الفترة، فأي كتاب ينسخ لابد من إرساله إلى المجلد حتى يقوم بتجليده لحفظ أوراقه من الضياع والتلف (**عبد العاطي: ١٩٨٤م، ٢٦٢**)، ولذلك فوجود المجلد في المكتبة المدرسية يقترن بوجود الناسخ، فالناسخ والمجلد متلازمان تقريبًا (**شلبي: ١٩٧٨م، ١٦٩**).

٤- المناولون:

ووظيفة المناول هي إرشاد القراء إلى موضع الكتب في الرفوف إذا لم يعرفوا طريقها، أو إحضار الكتب لهم من أمكنتها إلى حيث يقرؤون، ثم يقوم بإعادتها إلى أماكنها بعد فراغهم منها، ومن هنا يُسمى من يؤدي ذلك العمل مناولاً، وبهذا التحديد لوظيفة المناول يتضح أن عمله لا يسمو إلى عمل الخازن، ولكنه لا يهبط إلى مستوى الفراشين والعمال، فوظيفته ترتفع لاتصالها بالكتب ومعرفة أمكنتها، ولكنها تقف عند هذا الحد دون أن يتجاوز ذلك إلى معرفة فكرة عن محتويات الكتاب العلمية، فهذا من اختصاص الخازن ليستطيع به التعرف إلى موضوع الكتاب، ووضعه في المكان المناسب له (**شلبي: ١٩٧٨م، ١٧٦**). إذن عمل المناول يدور بين القراء والكتب.

رابعًا: مصادر تزويد المكتبات بالكتب:

لقد حظيت المكتبات المدرسية في العصر الأيوبي بالرعاية والاهتمام، بحيث يمكن القول بأن المكتبة كانت العمود الفقري للمدرسة تحيا بحياتها، وتزول بزوالها، ولذلك نرى أن مجموعات المكتبات المدرسية كانت على درجة كبيرة من الفخامة، ولقد تعددت مصادر تزويد المكتبة ما بين "وقف وشراء ووضع يد ونسخ".

الوقف:

يعد الوقف من أهم المصادر في هذه الفترة، حيث أدرك الواقفون أهمية المكتبة، لذلك كان اختيار الكتب لوقفها يحتل أهمية قصوى، تسند إلى شخصية علمية بارزة، والوقف على المكتبة كان يقع على عاتق واقف المدرسة ومؤسسها، لاعتبار أن المكتبة جزء من وقف المدرسة، وبالتالي تزود بما تحتاج إليه من كتب، فعلى سبيل المثال وقف القاضي الفاضل على مكتبة مدرسته جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم، يقال: "إنها كانت مائة ألف مجلد". **(المقريزي: ١٢٧٠هـ، ج٤، ١٩٧)**، كما كانت مكتبة دار الحديث الأشرفية بدمشق وقفًا من الأشرف موسى الذي أوقف كتبه عليها **(طرازي: د،ت، ج١، ٢٧٤)**، كذلك الحال بالنسبة لمكتبة المدرسة الرواحية فقد كانت وقفًا من منشئ المدرسة ابن رواحة **(أبوشامة:١٩٦٢م، ١٤٩)**، وكذلك مكتبة المدرسة الصاحبية كانت وقفًا من قبل مؤسس المدرسة المعروف بابن شداد. **(المقريزي: ١٢٧٠هـ، ج٤، ٢٠٥)**.

والجدير بالذكر أن بعض واقفي المدارس كانوا من العلماء الذين كان لهم دور مهم في إثراء المكتبة العربية والإسلامية بكثير من المؤلفات، ومنهم ضياء الدين المقدسي واقف المدرسة الضيائية، حيث ضمت مكتبة مدرسته مؤلفاته أو التي نسخها التي يقول عنها المقريزي: "وقد وقف كتبًا كثيرة بخطه بخزانة المدرسة الضيائية". **(المقريزي: ١٢٧٠هـ، ج٤، ١٣١)**، وكذلك مكتبة المدرسة الدخوارية التي زودها مؤسسها مهذب الدين ابن الدخوار بمجموعة كبيرة من الكتب. **(طرازي: د. ت، ج١، ٣١٣)**، كما أن المدرسة الشرفية كان لمؤسسها شرف الدين دور كبير في تكوين مكتبتها العظيمة **(الحلبي: ١٩٢٥م، ج٤، ٤٦٠)**، كذلك المدرسة البادرائية بدمشق، فلقد وقف عليها منشؤها نجم الدين أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء البادرائي أوقافًا حسنة دارة، وجعل بها خزانة كتب نافعة **(بدران:١٩٦٠م، ٨٨)**.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الوقف لم يتوقف على منشئ المدرسة، بل كان يتعداه إلى

شخصيات أخرى كمدرسي المدارس، إذ كان لهم دور كبير في إثراء المكتبات مثل ابن الصلاح تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن الكردي، وكان من علماء الحديث، والذي "رحل إلى خراسان وأقام بها مدة، وأخذ من مشايخ كثير ووقف على كتب غريبة، وعلق منها أمورًا مهمة وفوائد جمة في أنواع العلوم بلغت مجلدات كثيرة، ووقفها بدار الحديث الأشرفية" التي كان يعمل بها. **(ساعاتي:١٩٩٦،٨٤– ٨٥)**.

ولم يقتصر وقف مدرسي المدرسة على مدرستهم، بل نجد بعضهم يوقف كتبه على مدرسة أخرى غير التي يدرس بها، مثل ما حدث في مكتبة المدرسة الضيائية، فمن ضمن من وقفوا كتبهم ابن الحاجب، وهو مدرس بالمدرسة الفاضلية. **(بدوي: د. ت،٢٠٧)**.

وكان للعلماء أيضًا دورهم العظيم في تزويد المكتبة عن طريق وقف كتبهم، فهذا أبو المعالي مسعود بن محمد بن طاهر النيسابوري الفقيه الشافعي، وهو الذي جعل نور الدين محمود يبني المدرسة العادلية في دمشق، ولكنه توفي قبل إتمام بناء المدرسة، ونقلت كتبه إلى مكتبة المدرسة العادلية، وكانت نسخة كتاب "التقريب" الموجودة بالمكتبة وهي من تصنيف أبي الحسن القاسم بن أبي بكر القفال الشاشي، مكتوب عليها بخط الشيخ قطب الدين النيسابوري أنه وقفها **(ابن خلكان: ١٩٧١م، ج٤، ٢٠٠– ٢٠١)**.

وكذلك مكتبة المدرسة العمرية فهي "من وقف أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة الحنبلي، وبهذه المدرسة عدة خزائن من الكتب الوقفية من أعظمها "كتب السيد الحسيني، ومنها كتب الشيخ قوام الدين الحنفي، وكتب الشمسي البانياسي، وكتب المحدث جمال الدين بن عبد الهادي، وكتب شهاب الدين بن منصور، ومنها كتب. . . البدري ديوان الجيش، وفي هذه المكتبة مصحف الإمام علي بن أبي طالب"، وكان من بين الكتب التي وقفها عبدالوهاب الحسيني الدمشقي نسخة من القاموس المحيط بخطه" **(ساعاتي: ١٩٩٦م، ٨١)**.

ولقد تنامت مجموعة مكتبة المدرسة الضيائية في مراحل متعددة، حيث وقف عليها مجموعة من العلماء كتبًا من هؤلاء العلماء "الموفق والبهاء عبد الرحمن والحافظ عبد العزيز وابن الحاجب وابن سلام، وابن هائل، والشيخ علي الموصلي والحافظ عبد الغني، ووقف عليها محمد بن عبد المنعم بن غازي بن هامان بن موهوب الحراني كتبه وأجزاءه، وشاهد فيها الذهبي نسخة من حديث الخزاعي بخط أبي

بكر محمد قاضي المرستان، وقال: هذا الجزء في وقف الشيخ ضياء وأوله بخطه، حدثنا أبو سعد السمعاني".

وتجمع في هذه المدرسة من الكتب الوقفية ما دفع بجمال الدين بن عبد الهادي إلى القول بأنه كان بها "كتب الدنيا والأجزاء الحديثة حتى يقال: إنه كان فيها خط الأئمة الأربعة". **(ساعاتي: ١٩٩٦م، ٨٤)**.

وكان من المؤلفين من يحرص على وقف نسخة من أعماله على إحدى المكتبات الوقفية.

من كل ما سبق يتضح أن الوقف كان مصدرًا رئيسًا لتزويد المكتبة المدرسية في العصر الأيوبي.

الشراء:

كذلك كان الشراء من المصادر المهمة لتكوين المكتبة، فقد كانت دمشق سوقًا رائجةً لبيع الكتب اتضح ذلك من نص وقفية دار الحديث الأشرفية "وللشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف، أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب". **(السبكي: ١٩٩٢م، ج٢، ١١١)**.

وكان أثرياء الواقفين لا يترددون في دفع مبالغ طائلة في سبيل شراء كتاب له أهمية خاصة، كما فعل القاضي الفاضل عندما اشترى مصحفًا قيل: إنه مصحف عثمان بن عفان بمبلغ يصل إلى أكثر من ثلاثين ألف دينار. **(المقريزي: ١٢٧٠هـ، ٢، ٤٠١)**.

وضع اليد:

من مصادر تزويد المكتبات وضع اليد على وقف سابق، وذلك حينما سمح صلاح الدين الأيوبي لمحمد بن عبد الرحمن البنجدهي أن يأخذ ما يشاء من الكتب من خزانة حلب فحصل كتبًا لم تحصل لغيره، ثم وقفها **(ابن خلكان: ١٩٧١م، ج٤، ٣٩٠)**. وأيضًا عندما سمح صلاح الدين الأيوبي للعماد الأصفهاني الكاتب أن يأخذ مجموعة من الكتب من خزائن الكتب الفاطمية بمصر، ويقول العماد في ذلك: "أنه نقل منها ثمانية أحمال إلى الشام". **(النبراوي: ١٩٨٠م، ٥٩)**.

النسخ:

أثرى النسخ المكتبات العربية والإسلامية في ذلك العصر، فقد قام النساخ بدور عظيم بتزويد المكتبات بأنفس الكتب، فلقد كان هؤلاء أشبه بقسم الطبع والنشر في دور الكتب المعاصرة، فوجد بدار الحديث الأشرفية مجموعة من النساخ يقومون بنسخ الكتب للمشتغلين بعلوم القرآن الكريم وعلوم الحديث الشريف، جاء ذلك في نص الوقفية: "ويصرف في شراء ورق وآلات النسخ من أقلام ودوى، وكراسي ونحو ذلك ما تقع به الكفاية لمن

ينسخ في الإيوان الكبير، أو قبالته، من الحديث أو شيئًا من علومه، أو القرآن العظيم وتفسيره، ويصرف إلى كل من يكتب في مجالس الإملاء وإلى من يتخذ لنفسه كتبًا أو استجازة، ولا يعطى من ذلك إلا لمن ينسخ لنفسه لغرض الاستفادة والتحصيل دون التكسب والانتفاع بثمنه" **(السبكي: ١٩٩٢م، ج٢، ١١٠)**. يتضح من ذلك أن هذه المدرسة توفر جميع وسائل المعرفة من مكتبة وقرطاسية للأدوات الكتابية وقفًا لتحصيل العلم .

كما كان بمكتبة المدرسة الفاضلية "نساخ لا يفترون" **(المقريزي: ١٢٧٠هـ ، ج٢، ١٩٩)**.

وكان للنسخ أهميته القصوى خاصة لطلبة العلم، إذ كان الوسيلة الوحيدة للحصول على نسخة من كتاب هو إعادة نسخة بخط اليد في وقت لم تعرف فيه الطباعة بعد.

خامسًا: الإجراءات الفنية بمكتبات مدارس الدولة الأيوبية:

ذكرنا أن هناك أربعة مصادر تكونت منها المكتبة المدرسية، وكان لا بد من ترتيب مقتنيات هذه المكتبات بشكل يسهل استخدامها، لذلك نرى أن ترتيب المكتبات كان على درجة عالية من الدقة والنظام، وقد كان النظام في كل المكتبات الإسلامية أن توزع الكتب على الحجرات حسب موضوعاتها، **(الخطيب: ١٩٨٣م، ٧٤)**. وكانت طريقة وضع الكتب في المكتبات الإسلامية عامة تختلف عن الطريقة التي نعرفها الآن، حيث كانت الكتب توضع على الأرفف مرتبة منظمة مستلقية الواحد فوق الآخر.

وربما أخذ المسلمون هذه الطريقة من العصور السابقة لهم، حيث كانت الكتب في تلك الآونة عبارة عن لفائف البردي، وقضت طبيعة تلك اللفائف أن توضع في الأرفف بعضها فوق بعض، وكان يعتقد أن وضع الكتب بهذه الطريقة يحميها من الأتربة ومن قراضة الكتب. **(شلبي: ١٩٥٤م، ١٣٠)**.

وعلى الجانب الآخر فطريقة ترتيب الكتب بهذا الوضع لابد أن يراعى الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها وشرفها ومصنفها وجلالتهم فيوضع الأشرف أعلى الكل ثم يراعى التدرج، فإذا كان المصحف الشريف من بينها يكون أعلى الكل، والأولى أن يكون في خريطة ذات عروة في مسمار أو وتد في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس، ثم يلي المصحف كتب الحديث الصرف كالصحيحين، ثم تفسير القرآن الكريم، ثم تفسير الحديث الشريف، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم

الفقه، ثم النحو والصرف، ثم أشعار العرب، ثم العروض، فإن استوى كتابان في فن فأكثرهما قرآنًا أو حديثًا، فإن استويا فبجلالة المصنف، فإن استويا فأقدمهما كتابة، وأكثرهما وقوعًا في أيدي العلماء والصالحين، فإن استويا فأصحهما **(ابن جماعة: ١٣٥٤هـ، ١٧٠- ١٧١)**.

وعلى من ينضد (يرتب) الكتب بعضها فوق بعض مراعاة وضع الكتب ذوات القطع الكبير في الأسفل وذوات القطع الصغير فوقها، حتى لا يختل نظمها، ويكثر تساقطها **(ابن جماعة: ١٣٥٤هـ، ١٧٢)**.

ونتج عن تنظيم الكتب بهذه الطريقة كتابة اسم الكتاب واسم مؤلفه على أطراف الصفحات مجتمعة – أي على سمك الكتاب – فإذا وضعت الكتب بعضها فوق بعض جعل الجانب الذي عليه الكتابة في الجهة الخارجية للرف ليواجه المستفيدين، فتسهل معرفته والاستفادة منه.

أما الكتب النفيسة، أو الكتب غير المجلدة، أو التي يخشى عليها لضعف ورقها، فغالبًا ما كان يحفظ كل كتاب منها في صندوق صغير أوسع من الكتاب بقليل مصنوع من الجلد أو الورق المقوى، وحينئذ يكتب عنوان الكتاب واسم مؤلفه على جانب الصندوق **(شلبي: ١٩٥٤م، ١٣١- ١٣٢)**. وكان مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه بمكتبة المدرسة الفاضلية محفوظ في خزانة مفردة له وعليه مهابة وجلال **(المقريزي:١٢٧٠هـ ، ج٤، ١٩٧)**.

وكانت رفوف المكتبة مفتوحة، والكتب في متناول الجميع، يستطيع أي مطالع أن يتناول الكتاب الذي يريده، وإذا عسر عليه معرفة موضع كتاب ما يستعين بالمناول فيرشده ويساعده.

وكانت بعض غرف المكتبة لا تخلو من رفوف مغلقة على بعض الكتب النادرة مخافة تلفها أو تساقط بعض أوراقها، ويستطيع المطالع أن يستفيد منها بإذن من المشرف على المكتبة **(الخطيب: ١٩٨٣م، ٧٥)**.

أما بالنسبة للتصنيف فمن المؤكد أن المكتبات كانت مصنفة بدقة، على الرغم من أن الباحثة لم تقف على نص صريح يشير إلى ذلك، إلا أن هناك نصًا يساعد على تلمس ذلك، حينما ذكر العماد الأصفهاني ما حلّ بكتب القصر في القاهرة بعد دخول صلاح الدين الأيوبي إليها، إذ عمد بهاء الدين قراقوش بإيعاز من بعض دلالي الكتب إلى إخراج الكتب من خزانتها. فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف وغربت عن مساكنها، وخربت أوكارها، وذهبت أنوارها، وشتت شملها، فأخلط أدبيها

بنجومها، وشرعيها بمنطقيها، وطبيها بهندسيها، وتواريخها بتفاسيرها . . . (البنداري: ١٩٧١م، ج١، ٢٣٤- ٢٣٥).

وهذا النص يشير إلى أن تلك المكتبة كانت مصنفة بدقة؛ إذ كان تنظيمها حسب موضوعاتها، وفقدت هذا التنظيم عندما أخرجت من أماكنها، وبالتالي لقد عرفت المكتبات التصنيف في وقت سابق على الدولة الأيوبية، ولنا أن نتصور أن جميع المكتبات كانت مصنفة على هذا المنوال.

وكما حظيت المكتبات المدرسية باهتمام وعناية مؤسسيها في العصر الأيوبي كذلك أدركوا أهمية الفهارس فاهتموا بفهرسة محتويات المكتبة بحيث يسهل تناولها، ويسهل استخدامها من جانب المستفيدين. ولقد عرفت أماكن تحديد المستفيدين، فأكثر النصوص تشير إلى أن القصد من وراء الوقف إفادة طلاب العلم كافة، وبناء على ذلك فإن لهم الحق في استخدام الكتب الموقوفة والاستفادة منها، ومن العبارات التي يكثر ترددها بخصوص الوقف ما يلي:

وقف ... على من ينتفع به من طلبة العلم ...

وقف على طلبة العلم بالمدرسة...

وقف على من ينتفع به من المسلمين ...

أما شروط استخدام الكتب وقواعده، فإن غالبية النصوص الوقفية حددت شروطًا ووضعت قواعد تنظم أمر استخدام الكتب، والهدف منها بالدرجة الأولى الحفاظ عليها من الضياع وحمايتها من العبث.

وأهم شرط يتعلق بقضية الاستخدام هو الربط بين الكتب والمكان الذي وقفت فيه؛ إذ يجب أن يكون مقرها دائمًا أبديًا، وحتى بالنسبة للنص الذي لا يقيد الاستخدام فيقول إن الاستفادة من الكتاب الوقفي تكون بسائر وجوه الانتفاع مطالعة ومراجعة وغيرهما، وذلك أيضًا يجب أن يتم في إطار المكان وضمن الوقت المحدد للاطلاع مع احتمال إتاحة فرصة الإعارة المؤقتة، وكانت المكتبات المدرسية تقدم خدمات ثلاث، هي:

الخدمة الأولى: القراءة داخل المكتبة:

بالنسبة للقراءة فليس هناك أي خطر منها، فقد أجازت أغلب النصوص الوقفية ذلك، ونصت بأن للفرد الحق في القراءة والمطالعة والمراجعة والمقابلة. (ساعاتي: ١٩٩٦م، ١٥٥- ١٥٦).

وللمطالعة آداب معينة ينبغي اتباعها وهي عدم وضع الكتاب على الأرض بصورة مباشرة حتى لا يبتل أو يتندى، وعلى المطلع أن لا يجعل الكتاب خزانة للكراريس أو غيرها، ولا مخدة

ولا مروحة ولا مكبسًا ولا مسندًا ولا متكأ ...، ولا يطوي حاشية الورقة أو زاويتها ولا يُعلّم بعود أو شيء جاف، بل بورقة أو نحوها، وإذا ظفر فلا يكبس بظفره قويًا (ابن جماعة : ١٣٥٤هـ، ١٧٠ – ١٧٢).

الخدمة الثانية: الإعارة:

كانت القراءة في المكتبة حقًا مكفولاً لكل طالب علم، أما بالنسبة للإعارة الخارجية فقد كان الأمر مختلفًا، فقد نص بعض الفضلاء والصالحين الذين أنشأوا مكتبات وقفية على منع الإعارة الخارجية منعًا باتًا، بل يقتصر الانتفاع بالكتاب داخل المكتبة.

وعلى الجانب الآخر من الواقفين من سمح لطلبة العلم استعارة الكتب دون قيد أو شرط، وفريق ثالث أجاز إعارة الكتب شرط أن يكون المستفيد منها ذا سمعة جيدة أمينًا وأن يدفع رهنًا مناسبًا وأن يرد الكتاب في الوقت الذي حدد له.

فقد كان نظام الإعارة في مكتبة المدرسة الضيائية يسير على هذا النحو، فقد كان يكتب على كتبها ما نصه : "وقف بالمدرسة الضيائية بدمشق على من ينتفع به من المسلمين لا يعار إلا برهن إلا أن يكون فقيرًا صالحًا، ويحرم على الغني"(١٣).

ويقول ابن جماعة في أمر الإعارة: "إعارة الكتب للطلبة والمشيخة أمر قد استحسنه الأولون والآخرون، لما فيه من نشر العلم خاصة وإفادة الناس عامة حتى عُد من صفات العلماء المحمودة"(ابن جماعة: ١٣٥٤هـ ، ١٦٨).

ولكن يبدو أن القاعدة هي السماح بإعارة الكتب للأشخاص الموثوقين البحاثة. (حمادة: ١٩٨١م، ١٦٠). كذلك رغب أهل العلم في إعارة الكتب بقولهم:"إن أول بركة العلم إعارة الكتب" (السمعاني:١٤٠١هـ ، ١٧٥).

ودرج العلماء في هذا العصر على بذل كتبهم، فقد كان محمد بن داود بن ياقوت الصارمي رجلاً صالحًا عالمًا مفيدًا لطلبة الحديث وباذلاً كتبه وخطه لهم (أبو شامة:د.ت، ٢١٧)، وعندما أراد الطبيب عز الدين السويدي نسخة من كتاب (منافع الأعضاء) لجالينوس، كتب إلى القاسم بن خليفة بن يونس قصيدة منها:

وامنن فأنت أخو المكارم والعلى
بكتاب شرح منافع الأعضاء
وإعارة الكتب الغريبة لم تزل
من عادة العلماء والفضلاء

فبعث إليه الكتاب وهو في جزأين، فنقل منه نسخة في الغاية من حسن الخط وجودة النقط والضبط (ابن أبي أصيبعة: ١٩٦٥م، ٧٥٩).

وكتب محمد بن محي الدين محمد بن عربي إلى أبي شامة المقدسي يطلب منه استعارة

كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين" الأبيات التالية:

بك ملة الإسلام عاد شبابها

يا من بفتياه استبان صوابها

هذي ثمار الروضتين زكاتها

وجبت عليك غداة تم نصابها

فأمنن علي بها لعلي أجتلي

ثمرات علم راحتاك سحابها

وأنا الكفيل بحفظها وبحفظها

ويكون أسرع من نداك إيابها

ومهما يكن من أمر فلقد كانت هناك أنظمة وقواعد وضوابط كان على المستعير اتباعها نذكر منها ما يلي:

١- يستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه منها، وممن لا ضرر منه.

٢- إذا استعار المستعير كتابًا فينبغي له أن يتفقده عند أخذه ورده.

٣- ينبغي على المستعير ألا يطيل مقام الكتاب عنده من غير حاجة، بل يرده إذا انتهت حاجته أو إذا انقضت مدته التي أذن له بها، بالإضافة إلى أنه لا يحبسه إذا طلبة المالك.

٤- لا يحق للمستعير أن يعير الكتاب إلى غير، وفي حالة الرغبة في استنساخه كان من الضروري أن يستأذن صاحب الكتاب، إلا إذا كان الكتاب وقفًا على من ينتفع به غير معين فلا بأس من النسخ.

٥- إذا نسخ من الكتاب بإذن صاحبه فلا يضع المحبرة عليه، ولا يمر بالقلم فوق كتابته حتى لا يتلفه.

٦- لا يجوز أن يصلح الكتاب بغير إذن صاحبه ولا يحشيه ولا يكتب في بياض فواتحه أو خواتمه إلا إذا علم رضا صاحبه.

٧- كما يجب على المستفيد تقديم الشكر للمعير ويجزيه خيرًا.

ويتبع قول الشاعر:

أيها المستعير مني كتابًا

ارْضَ لي ما لنفسك ترضى

(ابن خلكان: ١٣٥٤هـ ، ١٦٨- ١٦٩).

وبهذا العرض لقواعد وضوابط الإعارة نجد أن أمة الإسلام عرفت للمعرفة قدرها حيث وصلوا إلى درجة عالية من نضج الوعي المكتبي.

الخدمة الثالثة: النسخ:

النسخ قديمًا هو البديل الوحيد للتصوير في الأزمنة الحديثة، فأحيانًا يحتاج المستفيد إلى كتب وقفية فإذا ما واجه صعوبة في مطالعتها داخل المكتبة، ولا تسمح أنظمة المكتبة بإعارتها له، فإن الغالب هنا إباحة النسخ، وعلى الرغم من إجازة النسخ إلا أنه قيد الأمر

بالاحتياط والمحافظة على الكتاب من أي شيء يسيء إليه، كما سبق ذكره عند الحديث عن أنظمة وقواعد وضوابط الإعارة، كما أنه يستحسن استئذان الناظر قبل الشروع في النسخ. **(ساعاتي: ١٩٩٦م، ١٦٠- ١٦١).**

الخاتمة وبعض التوصيات:

١- من كل ما تقدم يتضح لنا أن المدارس بما تضمنته من مكتبات قد نالت الدعم والرعاية في العصر الأيوبي اقتناعًا منهم بأن نهوض الأمم لا يكون إلا برقيها الثقافي وتقدمها العلمي، ومن هذا المنطلق أوقف سلاطين الأيوبيين الكثير من الأموال والأملاك والضياع على العلم والعلماء، ممثلاً ذلك في إنشاء كثير من المدارس الوقفية.

٢- أنشأ صلاح الدين مدرستين وقت أن كان وزيرًا للخليفة الفاطمي العاضد، ثم استمر في إنشاء المدارس بعد توليه السلطنة في مصر وكان لإنشاء هذه المدارس الدور الكبير في العودة بالبيئة المصرية إلى المذهب السني، وإبطال المذهب الشيعي، كما ساهمت بدور كبير في إثراء الحركة العلمية آنذاك.

٣- لم يقتصر إنشاء المدارس على سلاطين وملوك البيت الأيوبي فحسب، بل شارك في ذلك كبار رجال الدولة والأمراء والوزراء والعلماء وأيضًا النساء وغيرهم الكثير الذين أسهموا بدور كبير في دعم الحركة التعليمية.

٤- اتضح أن المكتبة مثلت جزءاً أساسياً في تكوين المدرسة، ولارتفاع أسعار الكتب آنذاك فكان البديل الوحيد هو توفير الكتب بخزانة المدرسة.

٥- شكل الوقف البنية الأساسية في مكتبات المدارس في العصر الأيوبي، مما أدى إلى انتشار الثقافة وتوسيع دائرة المعرفة عند الطلاب.

٦- المكتبات المدرسية كانت هي المكان الآمن الذي حافظ على تراثنا الإسلامي بعيدًا عن أيدي العبث والدمار.

٧- تميزت المكتبات المدرسية بدقة التنظيم ونضج الوعي المكتبي، فضلاً عن ضخامة المجموعات.

وتوصي الدراسة بأنه ينبغي التأكيد على الدور الحضاري الذي تؤديه المكتبة، وأيضًا تعميق الوعي المكتبي بين الدارسين من خلال دراسة تاريخ مكتباتنا العربية، حيث كان لها عظيم الأثر في قيام الحضارة العربية والتي نفتخر بها اليوم.

كما يجب إعداد دراسات أخرى تغطي الفترات التاريخية لكشف النقاب عن النهضة المكتبية، حيث إن هناك فترات تاريخية جديرة بالدراسة، وتعد مجالاً خصبًا للباحثين.

الهوامش

(١) الأواوين جمع إيوان، والإيوان بمعنى القاعة.

(٢) النشار، السيد السيد (١٩٩٣م). تاريخ المكتبات في مصر في العصر المملوكي؛ تقديم محمد فتحي عبدالهادي، جوزيف نسيم يوسف .- القاهرة : المصرية اللبنانية.

(٣) الرها : تقع الآن في جنوب شرق تركيا.

(٤) هو إسماعيل بن علي بن عماد الدين صاحب حماة، المتوفى سنة ٧٣٢هـ / ١٢٣١م.

(٥) قيسارية محرفة عن اللفظ اللاتيني Caesarea، ومعناه السوق الإمبراطوري، وكان يتكون من مجموعة من المباني العامة، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن لإيواء التجار.

(٦) الخاتون: كلمة فارسية وهي المرأة صاحبة الكلام في البيت والمتصرفة فيه (شير: ١٩٨٠م، ٥١).

(٧) الملك المعظم عيسى بن الملك العادل.

(٨) الأتابكة: جمع أتابك وتتألف هذه الكلمة من قسمين : أطأ : بمعنى أب، وبك : بمعنى أمير وقلبت الطاء تاء في الاستعمال للتخفيف إذن معناها الأمير الوالد أو الأب الأمير.

(٩) صندحنة تحريف عن اللغة الفرنسية (Sainte Anne) أي القديسة حنة.

(١٠) المجبرون : وهم من يختصون بأمراض العظام من الكسور وغيرها.

(١١) الطبائعيون : وهم من يختصون بالأمراض الباطنية.

(١٢) الكحالون : وهم من يختصون بطب العيون.

(١٣) ملخص تصانيف ابن أبي الدنيا. مخطوطة مصورة من مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، رقم ٢٠٤، ص٥٦.

المصادر والمراجع

١- إبراهيم، عبد اللطيف(١٩٦٢م). **دراسات في تاريخ الكتب والمكتبات الإسلامية**. - القاهرة: د.ن ، .

٢- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (١٩٦٥م). **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** / تحقيق نزار رضا.- بيروت: دار الحياة.

٣- الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (د.ت). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. ـ القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٤- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن

عبدالواحد الشيباني (١٩٧٩م) . **الكامل في التاريخ**. – بيروت: دار صادر.

٥- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (د . ت). **رحلة ابن بطوطة**.– بيروت: دار صادر.

٦- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (١٩٨٦م). **رحلة ابن جبير** .–ط ٢ .– بيروت: دار ومكتبة الهلال.

٧- ابن جماعة، بدر الدين محمد إبراهيم (١٣٥٤هـ). **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**. ـ بيروت: دار الكتب العلمية.

٨- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (١٩٦٨) . **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** / تحقيق إحسان عباس. ـ بيروت: دار صادر.

٩- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (١٨٩٠م) . **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**.– القاهرة: مطبعة بولاق.

١٠- ابن الشحنة، محمد بن محمد بن محمد الثقفي (١٩٠٩م) . **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**.– بيروت: المطبعة الكاثولوكية.

١١- ابن شداد، عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي. **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**:

الجزء الأول/ تحقيق يحيا زكريا عبّارة. دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩١م.

الجزء الثاني/ تحقيق سامي الدهان.– دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٦م.

الجزء الثالث/ ثلاثة أقسام تحقيق زكريا عبارة. – دمشق: د.ن، ١٩٧٨م.

١٢- ابن طولون الصالحي، محمد (١٩٨١م) . **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**/ تحقيق محمد أحمد دهمان .– ط٢.– دمشق: مجمع اللغة العربية.

١٣- ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين (١٩٩٦م). **الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة** / تحقيق أيمن فؤاد السيد.– القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب.

١٤- ابن نظيف الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي (١٩٨١م). **التاريخ المنصوري: تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان** / تحقيق أبو العيد دودو. – دمشق: مطبعة الحجاز.

١٥- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم. **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**:

الجزء الأول/ تحقيق جمال الدين الشيال. ـ القاهرة: د.ن ، ١٩٥٣م.

الجزء الثاني/ تحقيق جمال الدين الشيال. ـ الإسكندرية: د. ن ، ١٩٥٧م.

الجزء الثالث/ تحقيق جمال الدين الشيال. ـ الإسكندرية: د. ن ، ١٩٦٠م.

الجزء الرابع/ تحقيق حسنين ربيع.- القاهرة: د. ن ، ١٩٧٢م.

الجزء الخامس/ تحقيق حسنين ربيع.- القاهرة: د. ن ، ١٩٧٥م.

١٦- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد بن عبدالرحمن (١٩٦٢م) . **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**.- بيروت: دار الجيل.

١٧- بدران، عبد القادر بدران الدمّري الدمشقي(١٩٦٠م). **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: الآثار الدمشقية والمعاهد العلمية**. ـ بيروت: المجمع العربي للتأليف والدراسات والترجمة.

١٨- بدوي، أحمد (د.ت). **الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**.- القاهرة: دار نهضة مصر.

١٩- بيطار، أمينة (١٩٨٤م). التعليم في الشام في العصر الأيوبي، **مجلة تاريخ العرب والعالم**، ع٧٠.

٢٠- بيومي، علي (١٩٨٤م). **قيام الدولة الأيوبية في مصر**.- القاهرة: دار الفكر الحديث للطباعة والنشر.

٢١- التميمي، تقي الدين عبد القادر الغزي (١٩٨٣م). **الطبقات السنية في تراجم الحنفية**؛ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو.- الرياض: دار الرفاعي.

٢٢- حسن، حسن إبراهيم (١٩٥٨م) . **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب**.- ط٢.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

٢٣- الحلبي، محمد راغب هاشم الطباخ (١٩٢٥م). **أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء**.- حلب: المطبعة العلمية.

٢٤- الحلوجي، عبد الستار (١٩٩١م). **لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات**.- القاهرة: دار الثقافة والنشر والتوزيع.

٢٥- حمادة، محمد ماهر(١٩٨١م). **المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها**.- ط٣.- بيروت: مؤسسة الرسالة.

٢٦- حمزة، عبد اللطيف (١٩٦٨م). **الحياة الفكرية في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول**.- ط٨.- القاهرة: دار الفكر العربي.

٢٧- الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (١٩٣٨م). **معجم الأدباء**؛ إشراف أحمد فريد الرفاعي .- القاهرة.

٢٨- الخربوطلي، علي حسني (١٩٦٣م) . مصر العربية الإسلامية: السياسة والحضارة في:

مصر في العصر العربي الإسلامي منذ الفتح العربي إلى الفتح العثماني.- القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

٢٩- الخطيب، محمد عجاج (١٩٨٣م). **لمحات في المكتبة والبحث والمصادر** .- ط٨ .- بيروت: مؤسسة الرسالة.

٣٠- خليفة، شعبان عبد العزيز (١٩٩٧م). **الكتب والمكتبات في العصور الوسطى: الشرق المسلم، الشرق الأقصى**.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.- (مجموعة الببليوجرافيا التاريخية).

٣١- الدومي، أحمد عبد الجواد (د.ت). **صلاح الدين الأيوبي: الناصر لدين الله**. - بيروت: منشورات المكتبة العصرية.

٣٢- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (١٩٨٣م). **سير أعلام النبلاء**؛ تحقيق شعيب الأرنؤوط وأخرون .- بيروت: مؤسسة الرسالة.

٣٣- ساعاتي، يحيى محمود (١٩٩٦م). **الوقف وبنية المكتبة العربية: استبطان للموروث الثقافي**. ــ ط٢.- الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

٣٤- سالم، السيد عبد العزيز (د.ت). **تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي**.- بيروت: دار المعارف.

٣٥- سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف (١٩٥١م). **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**.- حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية.

٣٦- السبكي، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبدالكافي (١٩٩٢م). **فتاوى السبكي**؛ تحقيق حسام الدين القدسي.- بيروت: دار الجيل.

٣٧- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(د.ت). **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**. - بيروت: دار مكتبة الحياة.

٣٨- السمعاني، عبد الكريم محمد بن منصور (١٤٠١هـ). **أدب الإملاء والاستملاء**.- بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٩- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (١٩٦٤م). **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.- بيروت: المكتبة العصرية.

٤٠- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(١٩٧٨م). **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**. - بيروت: دار التراث.

٤١- الشاعر، منى سعد محمد (٥٦٧ – ٦٤٨هـ / ١١٧١ – ١٢٥٠م). دور الوقف في العصر الأيوبي .-القاهرة: **مجلة كلية الدراسات الإنسانية**، ٢٠٧ – ٢٤٧.

٤٢- شلبي، أحمد(١٩٥٤م). **تاريخ التربية الإسلامية**.- بيروت: دار الكشاف.

٤٣- شلبي، أحمد(١٩٧٨م). **تاريخ التربية الإسلامية**. - ط٦. - بيروت: دار الكشاف.

٤٤- الشيال، جمال الدين (١٩٦٧م). **تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي** .- القاهرة: دار المعارف.

٤٥- شير، السيد أردي (١٩٨٠م). **معجم الألفاظ الفارسية المعربة**. - بيروت: مكتبة لبنان.

٤٦- صبرة، عفاف (٢٠٠٠م). المدارس في العصر الأيوبي. بحث ضمن كتاب "**تاريخ المدارس في مصر الإسلامية**".- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. - (سلسلة تاريخ المصريين؛٥١).

٤٧- طرازي، فيليب دي (د.ت). **خزائن الكتب العربية في الخافقين**.- بيروت: منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة.

٤٨- عاشور، سعيد عبد الفتاح (١٩٧٢م) . **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**.- بيروت: دار النهضة العربية.

٤٩- عبد العاطي، عبد الغني محمود (١٩٨٤م). **التعليم في مصر في زمن الأيوبيين والمماليك**. القاهرة: دار المعارف.

٥٠- عبد المهدي، عبد الجليل حسن(١٩٨١م). **المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي ودورها في الحياة الفكرية**. - عمان: مكتبة دار الأقصى.

٥١- علي، محمد كرد(١٩٢٨م). **خطط الشام**.- دمشق: مطبعة المفيد.

٥٢- علي، سعيد (١٩٨٦). **معاهد التربية الإسلامية**. - القاهرة: دار الفكر العربي.

٥٣- غوانمة، يوسف حسن (١٩٩٩م). **صفحات من تاريخ القدس وفلسطين والأردن في العصر الإسلامي**.- عمان: د.ن.

٥٤- القاضي الفاضل، أبو علي عبدالرحيم بن علي بن حسن اللخمي البيساني (١٩٨٠م). **إنشاءات القاضي الفاضل**؛ تحقيق وتعليق فتحية عبد القادر النبراوي. ـ القاهرة: دار النهضة العربية.

٥٥- كازانوفا، بول (١٩٧٤م). **تاريخ ووصف قلعة القاهرة**؛ ترجمة وتقديم أحمد دراج؛ مراجعة جمال محرز.- القاهرة: المكتبة العربية.

٥٦- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (١٩٨٧م). **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**؛ تحقيق محمد شمس الدين. - بيروت: دار الكتب العلمية.

٥٧- معروف، ناجي (١٩٦٦م). **إنشاء المدارس المستقلة في الإسلام**.- بغداد: مطبعة الأزهر.

٥٨- المقـري، أحمـد بـن محمـد (١٩٦٨م). **نفـح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**؛ تحقيق إحسان عباس.- بيروت: دار صادر.

٥٩- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (١٩٩٧م). **السلوك لمعرفة دول الملوك**؛ تحقيق محمد عبد القادر عطا.- بيروت: دار صادر.

٦٠- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (١٢٧٠هـ). **المواعظ والاعتبار بذكر الخطـط والآثـار** .- القـاهرة : مكتبـة الآداب.

٦١- النعيمـي، عبـد القـادر بـن محمـد بـن عمر(١٩٩٠م). **الدارس في تاريخ المدارس**. - بيروت: دار الكتب العلمية.

* * * *